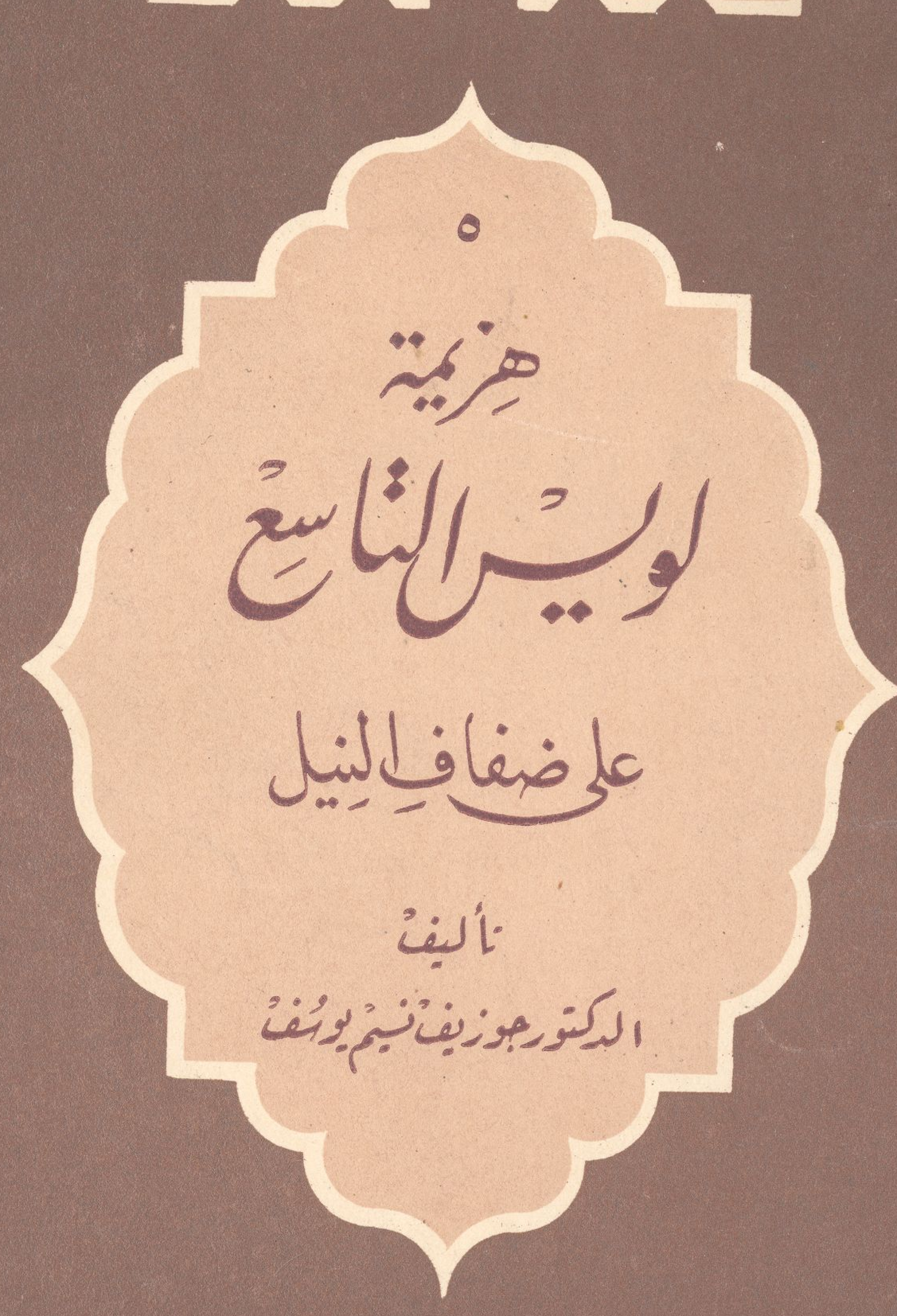
مع العرب



٥

هزيمة لويس التاسع على ضفاف النيل

تأليف
الدكتور جوزيف نسيم يوسف

مؤسسة المطبوعات الحديثة

مع العرب

٥

هزيمة

لويس التاسع

على ضفاف النيل

تأليف

الدكتور جوزيف نسيم يوسف

تصدرها

مؤسسة المطبوعات الحديثة

مقـــدمة

استهدفت مصر فى منتصف القرن السابع الهجرى، الثالث عشر الميلادى، لعدوان صليبي آثم بقيادة لويس التاسع ملك فرنسا، منى فيه الصليبيون بضربة شديدة وهزيمة منكرة.

وتعتبر هذه الحملة من الفصول الهامة فى تاريخ الحركة الصليبية التى قام بها أهل الغرب الأوروبى بقصد الاستيلاء على مصر والشام، وتأسيس مملكة لهم بها، تكون نقطة ارتكاز يتوسعون منها على حساب البلاد العربية المجاورة. وكان الغرب مدفوعاً بعوامل شتى، أهمها حب التوسع والسيطرة والاستعمار والعداوة التقليدية للعرب والإسلام. ولا نغالى إذا قلنا إن دول الغرب اتخذت من الدين ستاراً رقيقاً لإخفاء أطماعها التوسعية ونياتها السيئة فى منطقة الشرق العربى.

ولكن مصر التى حملت لواء الزعامة فى العالم الإسلامى فى ذاك الحين، والتى اعتبرت مركز إمداده ومعقله المنيع، هى التى تصدت لقتال الصليبيين المعتدين، ودونت بجهادها الصادق ضدهم فى حملة لويس التاسع وفيما سبقها وما لحقها من حملات، صفحة مجيدة خالدة فى تاريخها وفى تاريخ الأمة العربية جمعاء. وبذلك استطاعت أن ترد الغزاة على أعقابهم يجرون وراءهم أذيال الخيبة والخذلان والعار، فأنقذت بلاد الشرق العربى من خطر الغزو الأوروبى الوسيط.

والحملة التى نحن بصددها مستمدة من التاريخ نفسه ، لادخل للخيال فيها ، تركت أبطالها يقومون بأدوارهم كما أدوها على مسرح الحياة وقتذاك ، وتركت وقائعها وأحداثها تنساب كما قدر لها أن تكون . تركت حوادثها وأبطالها يكشفون لنا عن ألوان رائعة من البطولة والكفاح ، ونماذج حية من التضحية والاستشهاد فى سبيل الوطن وحريته ، وآيات بينات من التضامن العربى الحق ، وصور قاتمة من أحقاد المستعمرين وأطماعهم .

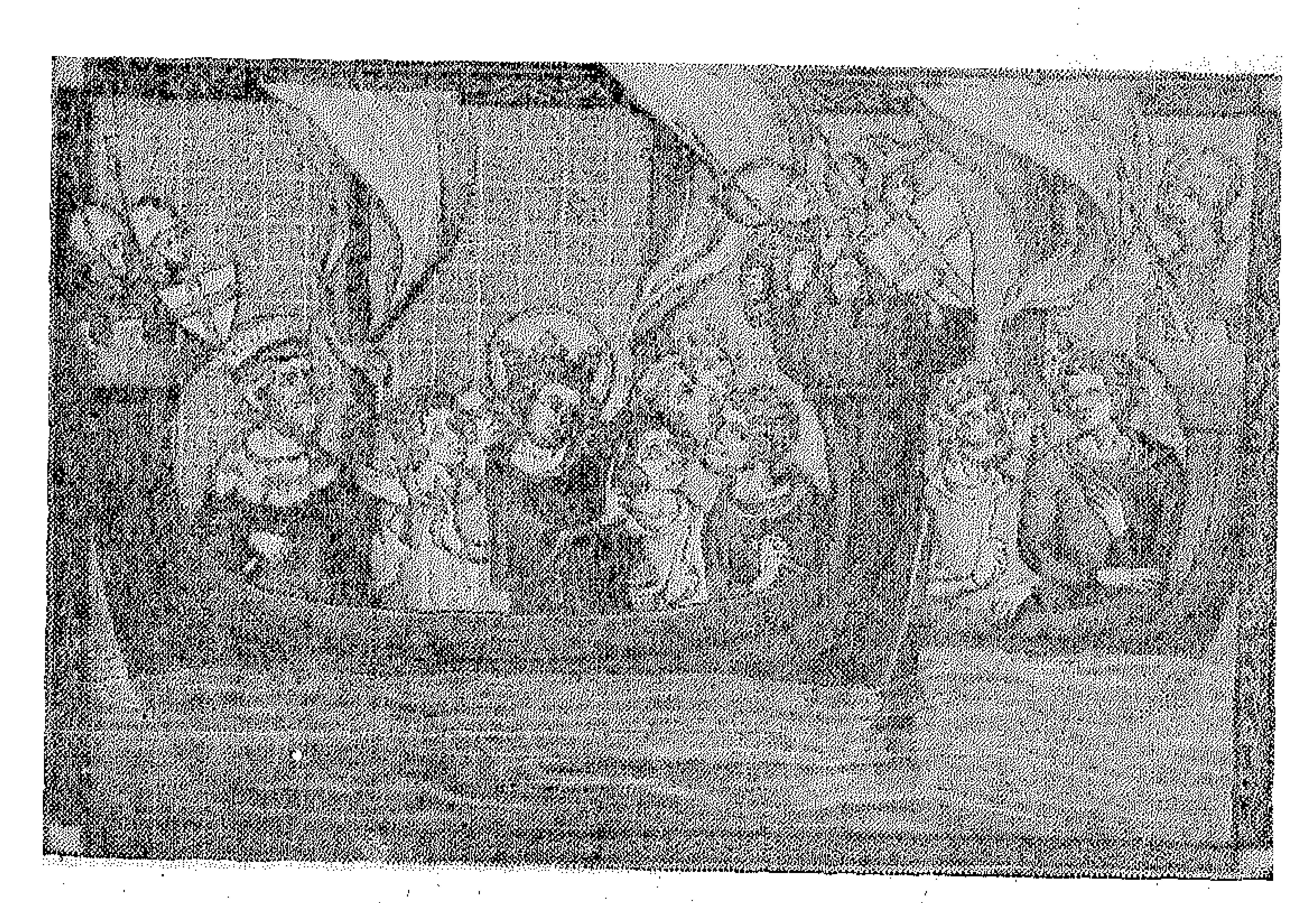
وقد تطلبت منا كتابة هذا الموضوع الرجوع إلى تآليف المعاصرين للحملة من العرب والفرنسيين ، وبعضهم كانوا شهود عيان لوقائعها مما يجعل لرواياتهم أهمية خاصة ، وإلى حوليات ومراجع ، لايزال الجانب الأكبر مما كتب منها باللغة العربية مخطوطاً ، وما كتب باللغات الأوربية فمعظمه لا يزال بلهجته الأصلية التى دون بها .

ولعلى أكون قد استطعت بما بذلت من جهد متواضع فى هذا البحث أن أسد شيئاً من النقص فى دراسة هذه المرحلة الهامة من تاريخ الاستعمار الأجنبى فى الشرق العربى ، ومن تاريخ جهاد مصر ضـــد لويس التاسع والفرنسيين ، لتكون عبرة لمن لا يعتبر . .

المؤلف

جيوش العدوان تبحر من فرنسا

منذ حوالى سبعمائة عام ، وعلى وجه التحديد فى الخامس والعشرين من أغسطس سنة ١٢٤٨ ميلادية جمادى الأولى سنة ٦٤٦ هجرية ، أبحر ملك من أشهر ملوك أوروبا فى ذلك الحين ، وهو لويس التاسع ملك فرنسا ، على رأس جيش ضخم من الفرسان والمشاة متجهاً شطر مصر بقصد الاستيلاء عليها . . لقد ملأه الغرور والزهو والخيلاء ، وخيل إليه أنه سيجد البلاد غنيمة باردة أو لقمة سهلة . . كانت تراوده الآمال العراض ، ولم يكن يخطر بباله ما تخبئه له الأقدار . .



جيوش العدوان تبحر من فرنسا قاصدة مصر

وقد اصطحب لويس معه فى رحلته المشئومة جانباً كبيراً من الصليبيين وعلى رأسهم أخواه شارل كونت أنجو وروبرت كونت أرتوا ، وكذلك زوجته الملكة مارجريت دى بروفانس التى أبت إلا أن تشارك زوجها فى مصائبه .. أما شقيقه الثالث المدعو ألفونس كونت بواتييه فقد بقى فى فرنسا بعض الوقت لجمع نجدات وإمدادات أخرى على أن يلحق بالجيش الفرنسى فيما بعد . .

ويبدو أن لويس قد أحس سلفاً بالإثم الذى سيقترفه فى حق هذه البلاد الآمنة ، فأفضى باعترافه قبل رحيله بين يدى بابا أوروبا حاصلا منه على صك الغفران على خطاياه . . ويا له من ثمن رخيص يدفعه مقدماً ملك عرف هو وشعبه بعدائهم وكراهيتهم للعرب والإسلام !

خرجت الحملة من ميناء مرسيليا بفرنسا فى عدد كبير من السفن التى أسندت قيادتها إلى الجنوية لعدم خبرة الفرنسيين بشئون الملاحة . . وفى السابع عشر من سبتمبر أرست فى جزيرة قبرص التى اعتـــبرت ملتقى الجيوش المعتدية الوافـــدة إلى الشرق . وكانت الجزيرة وقتـذاك تحت الحكم الفرنسى ، فكانت من ثم دولة صديقة لهم .. وقد شاهد الفرنسيون عند وصولهم تلالا من الغلال والحنطة والحبوب وبراميل النبيذ مكدسة فى الخلاء على ساحل الجزيرة ، وهى التى كانوا قد أرسلوها قبل سفرهم لتموين قواتهم عند معاركهم المقبلة مع المصريين . .

شعر الفرنسيون بأنهم فى ديارهم ، وبأنهم ليسوا غرباء فى هذه الجزيرة ، وامتدت إقامتهم هناك زهاء ثمانية أشهر قبل تحركهم صوب الديار المصرية ، فى انتظار وصول بقية الجيش . . وكان الله قد أراد لهم هذا

التأخير الطويل الذى عاد عليهم بكثير من الخسارة والأضرار .. إذ نفدت مؤنهم وأموالهم ، وانغمسوا كعادتهم فى اللهو والفسق نتيجة الفراغ ، مما أضعف قواهم وأنهكها ، فاختل نظامهم وانتشرت الأمراض والأوبئة بين صفوفهم . .

وكانت هذه بداية غير موفقة . .

مصر تستعد لملاقاة المعتدين

كان ذلك يتصل بالمعسكر الفرنسي فى قبرص . . أما فى مصر التى هيأ لها جهادها الصادق ضد الصليبيين مكان الصدارة فى العالم الإسلامى ، فقد كان يجلس على عرشها آنذاك ملك من أعظم خلفاء صلاح الدين هو الصالح نجم الدين أيوب .. كان سياسياً محنكا ، يقابل المصائب بجنان ثابت وحيلة واسعة . وكان لما يتمتع به من قوة الشخصية ، وحسن السياسة ، وشدة المراس ، الفضل فى أن تهيأ للبلاد خلال حكمه فترة من الهدوء والاستقرار الداخلى، مما كان له أكبر الأثر فى التغلب على الفرنج الدخلاء .

وما إن تواترت الأنباء بخروج الفرنسيين فى جموعهم العظيمة من فرنسا يتأهبون لقصد مصر ، حتى أسرع الصالح أيوب يعد العدة لملاقاتهم ودفع شرهم . . وقد وجد فى صديقه القديم فردريك الثانى إمبراطور ألمانيا الذى نشأ فى صقلية ، ملتقى مختلف الأجناس والأديان ، خير معوان له على تقصى أسرار الحملة ، وكانت العلاقات بينهما قائمة على الود وحسن التفاهم .. إذ أرسل فردريك أحد رجاله متخفياً فى زى تاجر إلى الصالح ، وكان مقيماً فى الشام حينذاك ، ليحذره من لويس التاسع ، ويخبره أنه اعتزم السير بجحافله الجرارة إلى أرض مصر لامتلاكها . . وبلغ من حقد بنى عشيرته عليه لتسامحه وصراحته ، أن اعتبره مسيحيو أوروبا أنه أقرب إلى الإسلام منه إلى النصرانية ، وأنه كان يؤثر القرآن على الإنجيل ! كما اتهمته الكنيسة الرومانية الكاثوليكية بالهرطقة واعتبرته

خارجاً عن تعاليمها ، لا لشيء إلا لوجهة النظر المتسامحة التي تشبع بها وعمل على تحقيقها كلما وجد إلى ذلك سبيلا . . ليغفر الله لهم زلاتهم في عصر امتازت فيه أوروبا بالتعصب الأعمى في هذه الناحية . .

تسربت إذن أخبار الحملة وخططها إلى المصريين .. وما إن علم السلطان بحركة الفرنسيين حتى عاد مسرعاً من الشام إلى مصر ، ونزل بأشموم طناح في يوم الثلاثاء الثامن عشر من مايو سنة ١٢٤٩ صفر سنة ٦٤٧ هجرية ليكون في مقابلتهم إذا وصلوا إلى دمياط التي كان يتوقع هجومهم عليها .. وأشموم طناح هذه هي إحدى المدن المصرية القديمة تقع على الشاطئ الشرقي للبحر الصغير الذي كان يسمى وقتذاك بحر أشموم نسبة إلى هذه المدينة وكان يطلق عليها أيضاً أشموم الرمان . وهي اليوم قرية عادية من قرى مركز دكرنس بمديرية الدقهلية . .

لم يضيع الصالح وقتاً ، بل أخذ في الاستعداد لمواجهة العدو وإعداد الجيوش للدفاع عن البلاد . . وعمل على تحصين مدينة دمياط لعلمه أنها كانت هدف الصليبيين في حملاتهم السابقة على مصر . . فلم ينس ماجرى عليها أيام أبيه الملك الكامل محمد قبل ذلك التاريخ بثلاثين سنة . . فأسرع بتزويدها بما يلزمها من المؤن والذخيرة ومن آلات الحرب والقتال . . ثم عهد إلى طائفة بني كنانة ، وهم جماعة من العرب اشتهروا بالشجاعة والإقدام ، بحمايتها من الداخل والدفاع عنها ضد غائلة المعتدين .

ولم يكتف السلطان بذلك ، بل أصدر أمره من أشموم طناح إلى نائبه في القاهرة الأمير حسام الدين بن أبي علي بإعداد قطع الأسطول من صناعة مصر وشحنها بالعدد والرجال ؛ إذ لم يكن يخفى عليه أهمية القوة

البحرية المصرية فى دفع أية إغارة على مصر تأتيها من وراء البحار ، حيث تمتد شواطئها مسافة أميال طويلة فى البحر المتوسط . . فشرع الحسام بتجهيز السفن وإرسالها تباعاً إلى دمياط . . ثم أوفد السلطان الأمير فخر الدين يوسف بن الشيخ قائد الجيش على رأس قوة إلى البر الغربى لدمياط ، حتى يكون فى مقابلة الفرنج عند وصولهم إلى الشاطئ المصرى، ليحول بينهم وبين النزول إلى أرض مصر .

الفرنسيون فى دمياط

الاستعدادات قائمة على قدم وساق .. فسلطان مصر يعد العدة لملاقاة الأعداء ودفعهم عن البلاد . . بينما يتأهب لويس التاسع وجيشه للرحيل من جزيرة قبرص صوب الشاطئ المصرى آملين احتلال البلاد . . وما كانوا يدرون أنها ستكون مقبرة لهم ، وصخرة تتحطم أمامها عزتهم وكبرياؤهم . .

وفى يوم الخميس الثالث عشر من مايو ١٢٤٩م — صفر ٦٤٧هـ أقلع لويس ورجاله من قبرص ميممين شطر مصر فى أسطول كبير يبلغ عدد وحداته نحو ألف وثمانمائة قطعة ، تحمل نحو خمسين ألف مقاتل من مشاة وفرسان ، بكامل معداتهم وسلاحهم ومؤنهم وخيولهم . . وبلغ من كثرة السفن أنها كست البحر حتى أنه لم يعد يرى سوى الساريات وهى تعلو وتهبط فوق سطح الماء . .

بدأت الرحلة فى جو ممتع بديع لا يعكر صفوه شيء .. ولا عجب فالوقت كان ربيعاً . . السماء صافية ، والشمس ساطعة تلقى بأشعتها الذهبية على صفحة الماء فتكسبها لمعاناً غريباً . . وكأن هدوء البحر قد أغرى لويس ومن معه ، فكشف عن خبيئة نفوسهم وحقيقة نواياهم . .

بدأ لويس كلامه قائلا :

— إن العهد جد قريب بما أنزله جيش المصريين بإخواننا الفرنج

من هزائم أمام غزة ، واستيلائه على بيت المقدس .. وكان ذلك في عام ١٢٤٤ .. لقد ضاعت هذه المدينة من أيدينا ، وأخشى ألا نتمكن من استردادها .. ولم يكتف المصريون بذلك ، بل أخذوا يغيرون على ممتلكاتنا ، فاستولوا على طبرية وعسقلان بعد ذلك التاريخ بثلاث سنوات .. وهكذا أصبحت باقى معاقلنا فى الشرق معرضة للخطر والضياع ..

ويستطرد ملك الفرنسيين قائلا ، وقد لمعت عيناه ببريق الخبث والدهاء :

— سيكون النصر حليفنا هذه المرة .. وستقع دمياط فى أيدينا .. فهي مفتاح مصر ، وطريق تجارى هام بين الشرق والغرب .. ويمكن منها تحقيق أطماعنا ، وتنفيذ مآربنا وغاياتنا ، وبسط نفوذنا على وادى النيل وسائر بلاد الشام .. وحينئذ يتسنى لنا استغلال خيراتها ومواردها وأرزاقها ..

ورد عليه شقيقه شارل كونت أنجو الذى عرف بأطماعه ، وكان يجلس إلى جانبه على ظهر السفينة الملكية :

— نعم .. هذا هو حلمنا القديم الذى أخفق أسلافنا فى تحقيقه .. سوف نحققه نحن اليوم .. سنؤسس لنا فى هذه الديار مستعمرة تدر علينا المال الكثير والربح الوفير الذى سيصل إلى خزائننا عن طريق التجارة وإرهاق كاهل الشعب بالضرائب ..

— لماذا نستبق الأحداث يا سادة .. ونحكم على خواتيم الأمور

والحملة لم تبدأ بعد ؟ ! لندع الأمور تسير فى طريقها ، وليكن بعد ذلك ما يكون . .

كان هذا هو تعقيب ألفونس كونت بواتييه . .

كان القدر يخبئ لهم الشيء الكثير .. إذ فجأة اكفهر الجو ، وانهمرت السيول ، وهاج البحر وارتفعت أمواجه كالجبال ، وهبت رياح عاصفة عاتية شتتت شمل السفن المعادية ، ودفعت جانباً منها بعيداً صوب عكا وسواحل الشام ، ولم تتمكن من اللحاق بالملك إلا بعد وقت طويل . .

كان غضب الطبيعة نذيراً بما سيحل بأولئك القوم من محن وأوصاب .

ولما سكنت العاصفة تابعت الحملة رحلتها . . وقبيل فجر يوم الجمعة الرابع من يونيو وصلت إلى الفرع الشرقى للنيل ، وأرست بالبر الغربى لدمياط . وكان يعرف فى ذلك الوقت باسم بحيرة دمياط أو الجزيرة ؛ لأن مياه البحر الأبيض تحيط به شمالا ومياه النيل تحيط به شرقاً . .

أما دمياط التى كانت مسرحاً لعدوان الصليبيين ، فكانت تقع على الجانب الأيمن للفرع الشرقى للنيل عند اتصاله بالبحر . وهى إحدى المدن المصرية العريقة فى القدم التى يرجع تأسيسها إلى ما قبل الفتح العربى . ولقد قاومت كثيراً من اعتداءات الفرنجة المتكررة عليها ، حتى أدى ذلك فى النهاية ، وبعد عدوان لويس التاسع على وجه الأخص ، إلى اتفاق المماليك البحرية على تخريبها ودك أسوارها وحصونها ، وبناء دمياط الجديدة إلى الداخل بعيداً عن شاطئ البحر ، حتى تخلص البلاد من شر اعتداء الغزاة عليها وطمعهم فيها . .

وكانت مدينة حصينة غاية الحصانة ، تحيط بها الأسوار والأبراج والقلاع من كل جانب . . كما كان عند مدخلها برج ضخم حشد فيه المقاتلون . . وكانت السلاسل الحديدية المتينة تمتد منه إلى برج مقابل على الشاطئ الآخر لمنع سفن العدو من العبور فى النيل والوصول إلى المدينة .

* * *

وعندما وصلت مراكب العدو وفيها جموعهم الغفيرة تجاه البر الغربى لدمياط ورست فى مواجهة القوات المصرية ، أرسل مليكهم من قبله رسولا إلى الملك الصالح نجم الدين أيوب ، ومعه رسالة يهدده فيها بالويل إن لم يستسلم له ويذعن لمطالبه . .

فض الصالح الرسالة وإذا برائحة الغدر تفوح منها . . وأخذ يقرأ فى عجب ودهشة واستخفاف :

« . . إنا نقتل العباد ، وندوس البلاد ، ونطهر الأرض من الفساد.. فإن قابلتنا بالقتال فقد أوجبت على نفسك ورعيتك النكال ، ورميتهم فى أسر الوبال ، ويكثر فيهم العويل ، ولا نرحم عزيز ولا ذليل ، ولا تجد إلى نصرتهم من سبيل . ونحن شرحنا لك مافيه الكفاية ، وبذلنا لك غاية النصيحة والهداية ، أن تنقل إلى عندنا ماعندك من الرهبان، وتحلف لنا بعظائم الأيمان أن تكون لنا نائباً على مر الأزمان ، وتعجل لنا بما عندك من مراكب وطرائد وشوان ، ولايكون فيك فتور ولاتوان ، لتكون قلوبنا راضية عليك . . ولاتسوق حتفك إليك ، وتكون على نفسك وجيشك قد جنيت ، وتعود تقول ياليت . . »

استشاط السلطان غضباً ، وقرر أن يكيل للملك الفرنسى المغرور الصاع صاعين . فاستدعى كاتب الإنشاء بالديار المصرية بهاء الدين زهير — وهو شاعر مصرى رقيق — وأمره بإرسال رد يليق بملك مأفون يعيد إليه رشده وصوابه . .

وعاد الرسول إلى سيده يحمل إليه رسالة السلطان . . وبيد مرتعشة تناول لويس الرسالة وأخذ فى تلاوتها :

« بسم الله الرحمن الرحيم ، وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه أجمعين ، والحمدلله رب العالمين ، والعاقبة للمتقين ،ولاعدوان إلا على القوم الظالمين ، من عندالذائد عن حرم المسلمين ، والقارئ كتاب رب العالمين المنزل على خير المرسلين ، محمد صلى الله عليه وسلم ، وعلى آله الطاهرين ، وأصحابه الأنصار والمهاجرين ، صلاة دائمة إلى يوم الدين . . أما بعد ، فقد وصل كتابك ، وفهمنا لفظك وخطابك . . وها أنا قد أتيتك بالخيل والرجال ، والخزائن والأموال ، والعساكر والأثقال ، والقيود والأغلال ، فإن كانت لك ، فأنت الساعى وقد أمنت الناعى . . وإن كانت عليك ، فأنت الباغى لحتفك ، والجادع أنفك بظلمك .. فإن رأيت ألا تقيم بين الفئتين ضغناً ، فلذلك من الله علينا وعليكم منناً .. وإن غير ذلك ، فقد قال الله تعالى : « أفمن زُيِّنَ له سُوءُ عَمَلِه فرآه حسناً » . . ولما وصل إلينا كتابك أعطيناك جوابك ، ومن يهده الله فهو المهتدى ، ومن يضلل فلن يجد له ولياً مرشدا . . وفى كتابك تهددنا بجيوشك وأبطالك وخيلك ورجالك ! ألا تعلم أننا نحن أرباب الحتوف وفضلات السيوف ، مانزلنا على حصن إلا هدمناه ، ولاعدم منا فارس إلا جددناه ، ولاطغى

علينا طاغ إلا دمرناه . . فلو نظرت أيها المغرور حد قلوبنا ، وجـد حروبنا ، لرأيت فرساناً أسنتهم لاتمل ، وسيوفهم لاتكل ، وقلوبهم لاتذل ولعضضت يدك بسن الندم ، ولأخرت تحريك قدم عن قدم . فلاتعجبك العساكر التى بين يديك ، فهو يوم أوله لنا وآخره عليك . . »

واستمر يقرأ ويقرأ وقد أحس الأرض تميد تحت قدميه ، ثم تلا :

« إذا أتاك كتابى هذا فلتكن منه بالمرصاد على أول سورة النحل وآخر سورة (ص) : « أتى أمر الله فلا تستعجلوه » و « لتعلمنّ نبأه بعد حين » . هنالك تتطاول نحوك الأعناق ، وتشخص صوبك العيون ، ويشوبك الويل ، وتسوء بك الظنون ، « وسيعلم الذين ظلموا أى منقلب ينقلبون » ، ونعود إلى قول الله تبارك وتعالى وهو أصدق القائلين : « كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة بإذن الله والله مع الصابرين » والسلام »

كلمات من نار يعلن فيها سلطان مصر تحديه للفرنسيين وملكهم ، واستخفافه بهم ، واستهانته بكثرة جموعهم ، واستعداده لنزالهم وتأديبهم ، إذا ماسولت لهم نفوسهم القيام بأى عمل عدائى . . كلمات من نار أخذت تطن فى أذنى لويس ، ولاشك أنه أخذ يسترجعها عندما وقع أسيراً ذليلا كسيراً فى قبضة المصريين . . ولكنها الأطماع . . أطماع الاستعمار التى تعميه عن كل شىء . .

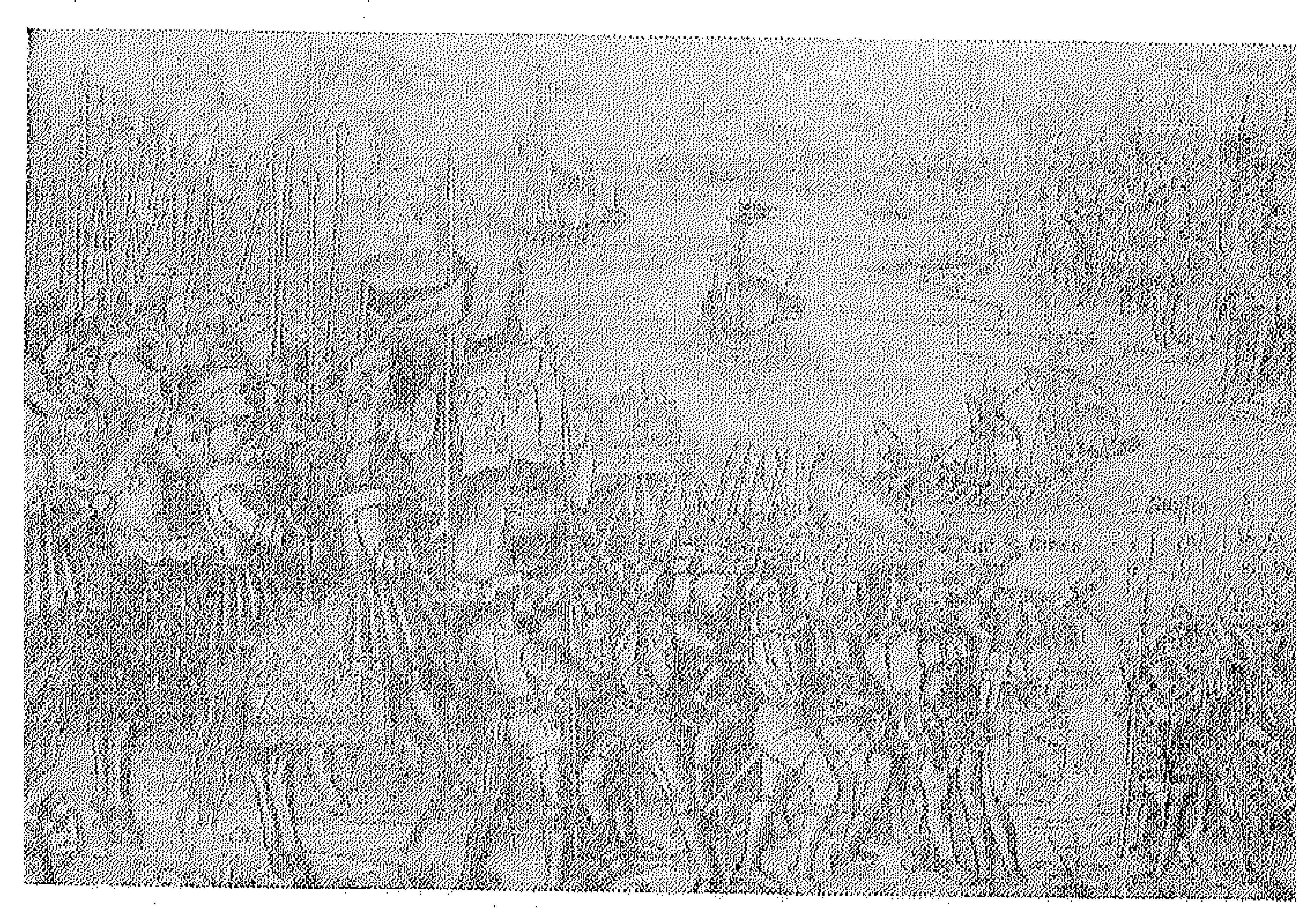
* * *

أسرع الملك الفرنسى بالاجتماع بكبار رجاله فى سفينته للتداول معهم فيما يجب عمله . . واستقر رأيهم على النزول إلى بر دمياط فى يوم السبت ، وهو اليوم التالى لوصولهم . .

أما قوات المصريين بقيادة الأمير فخر الدين فكانت مرابطة على الشاطئ متأهبة للقتال ..

وكان منظراً مثيراً حقاً .. منظر هذه القوات التى تتألف من رجال أشداء مستعدين للقتال ، وإلى جانبهم قائدهم ذو الدرع الذهبي الذى يتألق فى الشمس حين شروقها وقد علت أصوات أبواقهم وقرع طبولهم حتى ملأت المكان وحشة ورهبة .

وفى صبيحة يوم السبت الخامس من يونيو ، شرع الفرنسيون فى النزول إلى البر ، وقد وجدوا صعوبة كبيرة فى عملية النزول لأن مياه الشاطئ كانت ضحلة غير عميقة .. فتركوا سفنهم الضخمة فى عرض البحر ، وانتقلوا إلى البر فى قواربهم الصغيرة حيث ألقوا بأنفسهم فى الماء وعلى



الفرنسيون ينزلون بدمياط

رأسهم لويس نفسه ، بينما ظلت الملكة مارجريت على ظهر السفينة الملكية تراقب القتال عن بعد . .

بدأ الصدام بين الفريقين ، واستماتت قوات المصريين فى الدفاع عن الشاطئ . . بينما بذل فرسانهم قصارى جهدهم لمنع الأعداء من النزول ، وأخذوا يرمونهم بالسهام والرماح التى فتكت بعدد منهم . . ومع ذلك تمكن الفرنسيون من النزول إلى البر بسبب كثرتهم العددية . .

وما إن نزل الملك الفرنسى حتى نصبت له خيمة حمراء فى لون الدماء المراقة . . كذلك ضرب باقى الصليبيين خيامهم استعداداً للمعركة الثانية . وسرعان ما بدأ القتال الذى استمر من الصباح الباكر حتى وقت الظهيرة ، وانتهى بكسب مؤقت أحرزه الفرنج فى ذاك اليوم . .

وكان ممن استشهد من المصريين الأمير نجم الدين بن شيخ الإسلام ، والأمير صارم الدين أزبك الوزيرى ، من أخصاء الملك الصالح أيوب .. استشهدا بعد أن أبليا فى قتال أعداء الله خير بلاء . .

* * *

كان الصالح أيوب فى تلك الأثناء مريضاً ومقيماً بأشموم طناح ، وقد اشتدت به العلة حتى أشرف على الموت . . وكان الأطباء يأتونه كل يوم وقد يئسوا من شفائه ، ولكنه لم يشعر بذلك . . فلما وقع ما وقع ، أطلق الأمير فخر الدين الحمام الزاجل يحمل النبأ إلى السلطان ، وتعددت رسائله إليه دون أن يتلقى رداً ، فاعتقد أنه قد مات . .

فلما جن الليل ، وكان الصليبيون قد تمكنوا من البر الغربى للمدينة ،

رحل القائد المصرى ومن معه من القوات من الشاطىء الغربى، وقطع بهم الجسر إلى الجانب الشرقى الذى فيه دمياط .. ثم واصل السير متجهاً جنوباً إلى معسكر السلطان عند أشموم طناح، استعداداً لملاقاة الغزاة وصدهم عند تقدمهم داخل البلاد .. ولكن الجند نسوا فى عجلتهم أن يحطموا الجسر الذى كان يصل بين الشاطئين الشرقى والغربى؛ فانقض الفرنسيون عليه واحتلوه وانفتح أمامهم الطريق إلى المدينة .. ولكنه كان فى نفس الوقت الطريق إلى الاندحار والهزيمة ..

وكان بالمدينة أيضاً بنو كنانة من العربان، وهم جنود الحامية الذين أنزلهم بها الصالح أيوب للدفاع عنها ضد المعتدين، فتملكهم الرعب وتركوها لكى يلحقوا بباقى الجند.

لم يبق بدمياط بعد تراجع الجند والكنانية غير أهلها .. وعندما شاهد الدمايطة ذلك قرروا أن يقوموا بعمل إيجابى سريع يردون به على الجيش المغير .. وكان هذا العمل هو تخريب المدينة وتركها قاعاً صفصفاً بعد أن أدركوا أنها واقعة لا محالة فى أيدى الأعداء .. وفى الحال أشعلوا النيران فى دار السلاح وكانت تسمى الزرد خاناه، وفى سوق المدينة ومخازنها حيث تكدست البضائع والحاجات، وكذلك فى بعض الدور الكبرى حتى لا تقع بما فيها من الخيرات والمؤن والعتاد غنيمة فى أيدى الفرنج ..

كان هذا بداية الطريق .. وقد أدرك الشعب أنه طريق طويل شاق .. طريق ملىء بالعقبات والصعاب .. طريق الكفاح فى سبيل الحرية .. وليس أعذب إلى نفسه من الكفاح فى سبيلها .. أدرك

شعب مصر الخالد الذى آمن بحقه فى الحياة الحرة الكريمة أن الجهاد فرض عليه حتى تخلص البلاد من شر المعتدين وتعود سالمة إلى أبنائها .

وبعد أن أشعل أهل دمياط النيران فى مدينتهم ، انطلقوا يهيمون على وجوههم طوال الليل ، ولحقوا بالجند فى أشموم طناح . . ثم واصلوا المسير إلى القاهرة وهم فى حالة يرثى لها من التعب والإعياء .

ولما أصبح الفرنج يوم الأحد السادس من يونيو سنة ١٢٤٩ م — ربيع الأول سنة ٦٤٧ ﻫ ، وكان يوماً مكفهراً معتماً على غير المألوف فى مثل هذا الوقت من العام ، قصدوا دمياط فوجدوها كومة من التراب وقد ارتفعت ألسنة اللهب عالياً فى سمائها : . وجدوها خالية خاوية على عروشها تستمطر اللعنات عليهم .

وبينما كان السلطان يعانى الأمرين من وطأة المرض وهو بين الحياة والموت ، وافته هناك القوات المصرية ورجال الحامية . لكنه لم يستسلم للمرض ، ولم يتطرق اليأس إلى نفسه . . وأراد تأديب بنى كنانة لمغادرتهم دمياط دون أمر منه ، فأمر بشنق عدد من أمرائهم ، بعد أن عزز قضاءه بفتوى من فقهاء مصر وعلمائها . . وقد صلب أمراء الكنانية على النخل كما هم بثيابهم ومناطقهم جزاء على فعلتهم هذه .

بعد ذلك ارتد الملك الصالح أيوب على مملوكه فخر الدين فى حنق زائد إذ كان متألماً لرجوعه بالعساكر عن دمياط وتهاونه بها حتى وقعت بين براثن الفاتحين الأجانب . . غير أن الوقت كان حرجاً ، فكتم غيظه وأسرّ هذا الأمر فى نفسه إلى أن تنكشف الغمة .

حينئذ تسلل الخوف إلى قلوب مماليك الصالح بعد ما رأوه من إعدامه زعماء الكنانية ، وفكروا فى التخلص منه . وكادت هذه المؤامرة أن تخرج إلى حيز التنفيذ لولا أن منعهم قائدهم من ذلك قائلا لهم إن السلطان يوشك أن يموت ، فإن مات فقد استراحوا منه ، وإلا فهو بين أيديهم لهم أن يفعلوا به ما يطيب لهم .

رأى السلطان والحالة هذه أن الحكمة تملى عليه التراجع مع جيشه جنوباً إلى المنصورة للتحصن بها ضد الفرنسيين . . فهى تمتاز بموقع حصين إذ يحميها النيل غرباً ، ويفصل بحر أشموم بينها وبين الفرنج فى الشمال . . فأصدر أوامره بالرحيل . وحمل فى سفينة حيث أن مرضه كان إذ ذاك قد أقعده عن المشى ، حتى بلغ المنصورة فى يوم الثلاثاء الثامن من يونيو ونزل فى نفس القصر الذى كان أبوه الملك الكامل محمد ينزل فيه من قبل ..

واجتمعت بالمدينة جموع غفيرة من أفراد الشعب والمتطوعين للجهاد ضد الصليبيين الغزاة . . وهم الذين سيسجلون بهذا الجهاد صفحة مجيدة فى تاريخ المنصورة ، بل وفى تاريخ الوادى والشرق العربى من محيطه إلى خليجه ، ضاربين أروع الأمثلة فى البطولة والمقاومة الشعبية . .

كذلك شرع الجند على الفور فى إقامة الاستحكامات حول المدينة ، فأصلحوا السور الذى كان يحيط بها من ناحية البحر وستروه بالستائر ، ونصبوا آلات القتال لتكون فى مواجهة العدو . .

وقدمت قطع الأسطول المصرى وفيها من الفرسان والمشاة العدد الوفير ، وأرست أمام السور . . وكان من بينها الشوانى أو الغربان وهى نوع من السفن الحربية الكبيرة كانوا يقيمون فيها أبراجاً وقلاعاً للدفاع

والهجوم . . والحراريق وكانت تستخدم لحمل الأسلحة النارية مثل مكاحل البارود وقوارير النفط ، وكان بها مرام تلقى منها النيران على العدو . . والطرائد التى تستخدم لحمل الخيل للأسطول . . والمسطحات لنقل الجند والعتاد ، وسميت كذلك لأنها مسطحة . .

كانت هذه الاستعدادات التى قام بها الصالح أيوب ضرورية للوقوف فى وجه الفرنسيين إذا ما تحركوا من دمياط جنوباً صوب عاصمة المعز .

نعم أيها الفرنسيون . . نعم أيها الملك الضليل . . كانت هذه الاستعدادات ضرورية لوقف عدوانكم الغاشم الأثيم . كان هذا هو شعار كل فرد من أبناء الوادى . . المسلم والمسيحى . . الشعب والجيش .. الكبير والصغير . . الغنى والفقير . . الجميع يقفون صفاً واحداً وقلباً واحداً وروحاً واحدة فى انتظار اليوم الفاصل لتلقين دولة العدوان الدرس الذى لن تنساه .

سورية الشقيقة

امتدت هذه الوحدة خارج مصر لتشمل الوطن العربى الكبير .. امتدت إلى سورية الشقيقة .، لقد عز عليها أن تجد أختاً لها فى الجهاد يناها السوء .. فالعدوان على مصر عدوان عليها إذ أن مصر جزء منها وهى جزء من مصر . وكلاهما متمم للآخر ..

فما إن بلغ السوريين امتلاك الفرنسيين لدمياط حتى قصد عسكرهم إلى مدينة صيدا ، واستولوا عليها من الفرنج بعد فترة من الحصار والقتال بين الفريقين .. وأخذوا بعد ذلك فى توجيه الضربات الشديدة إلى باقى ممتلكات الصليبيين فى الشرق بقصد إزعاجهم ومضايقتهم ، جزاء وفاقاً على ما اقترفوه فى حق تلك الشعوب الآمنة .. وقد ورد الخبر بذلك إلى مصر ، فسر أهلها سروراً كبيراً ..

كان هذا الإجراء الحاسم الذى اتخذته سورية ضربة موجهة إلى قلب الاستعمار .. بل كان تضامناً عربياً خالصاً تأصلت جذوره منذ القدم .. لقد أقدم السوريون على هذه الحركة ولسان حالهم يقول للمعتدين : « دعونا وشأننا .. اخرجوا من ديارنا .. اغربوا عنا .. إن محاولاتكم لن تفزعنا ولن تنال من وحدتنا وعروبتنا وقوميتنا » .

لقد أدركوا أنه بوسع المسلمين فى مصر والشام إذا اتحدت جهودهم واتفقت كلمتهم ، أن يدفعوا عنهم خطر الجماعات الصليبية ، وأن يعملوا على مضايقتها بشتى الطرق والوسائل .. وهم لم ينسوا بعد أن ما أصابه

الصليبيون من نجاح فى بداية حركتهم إنما كان على حساب ضعف الولايات الإسلامية وانقسامها وتفككها ، وأنهم كلما اتحدوا كان ذلك بشيراً بحركة يقظة شاملة وتكتل عربى تعقبه حملات مضادة على الصليبيين الدخلاء وإماراتهم فى الشرق . . وهم ما زالوا يذكرون أن أولى الحملات الصليبية التى أفلحت فى تحقيق أطماعها وتأسيس إماراتها فى الشرق لتكون شوكة فى جنبات الدول العربية إنما كان نجاحها على حساب العالم الإسلامى الذى كان منقسماً على نفسه آنذاك بما أضعفه عن مواجهة العدوان الغربى . . وأنه عند ما أحس العرب بالخطر المحدق بهم سعوا إلى توحيد صفوفهم لمقاومة الفرنج وطردهم من ديارهم . وظهرت فى ذلك الوقت شخصيات عربية لامعة على رأسها صلاح الدين الأيوبى بطل حطين وفاتح بيت المقدس ومؤسس دولة الأيوبيين بمصر والجد الأكبر للملك الصالح نجم الدين أيوب الذى أغار لويس وجيشه على البلاد فى عهده . .

* * *

هذا هو دور سورية فى المعركة ، وهكذا كان السوريون أيام العدوان على مصر . .

وإذا عدنا إلى الفرنسيين فى دمياط ، نجد أنهم بعد أن استقرت بهم الأحوال إلى حد ما ، توقفت الأعمال الحربية فترة من الزمن . . وظلوا مقيمين بالمدينة مدة تقرب من ستة أشهر دون القيام بأى عمل جدى . . فترة طويلة من الكسل اختل فى أثنائها النظام فى معسكراتهم ، وساد الإفراط الفاضح فى الملذات والفجور بين أمرائهم ونبلائهم وجنودهم على السواء ، كما حدث تماماً خلال إقامتهم بقبرص . . وانهمك جنودهم

فى الشهوات مع نساء الفرنج الذين قدموا إليهم من معاقلهم بالشام . . وكم من ليال حمراء قضاها أولئك القوم بين أحضان خليلاتهم . .

مسكين لويس التاسع . . كانت كل هذه الفضائح ترتكب أمام عينيه وعلى الرغم من إرادته ، حتى بات عاجزاً عن السيطرة على جيوشه أو كبح جماحها . .

وإذ أحس المصريون باستسلام الأعداء إلى الجمود وامتناعهم عن العمل ، أخذوا يشنون عليهم الغارات متوالية هوجاء ، وأخذوا فى مناوشتهم القتال ، حتى أقضوا مضاجعهم وأقلقوا راحتهم . .

فنى منتصف أغسطس من عام ١٢٤٩م — سنة ٦٤٧هـ هاجمت القوات المصرية معسكر الأعداء بدمياط من ناحية البر ، وكان الملك الفرنسى قد أصدر أمراً لرجاله بعدم مغادرة المعسكر دون تصريح منه . ولكن أحد كبار الفرنج ضرب بأوامر لويس عرض الحائط ، فلبس درعه ، وامتطى جواده ، وانطلق مع بعض رجاله من خيمته مسرعاً نحو المصريين . . وكانت فرصة طيبة أوسع فيها جند مصر أولئك الرجال ضرباً ، وأصابوهم بجراح بالغة . . وكاد أن يهلك قائدهم لولا أن أسرع لإنقاذه بعض إخوانه ، وحملوه إلى خيمته وهو فاقد النطق ، حيث مات بعد ذلك متأثراً بجراحه . .

وأخذ سلطان مصر الصالح أيوب يتفنن فى مضايقة الصليبيين . فراح يمنح مبلغاً من المال عن كل رأس من رءوس الأعداء يأتيه به أحد جنوده . . وكان مشاة المصريين يتسللون إلى المعسكر الفرنسى ليلا ،

ويجهزون على كل من تصل أيديهم إليه ، ثم يعودون أدراجهم من حيث أتوا حاملين معهم رءوس قتلاهم . .

وإحكاماً للمراقبة أصدر لويس أوامره بأن يقوم الجند بحراسة المعسكر وهم مترجلون ، بعد أن لاحظ أن المصريين كانوا يتسللون إلى داخل المعسكر خلف جياد الصليبيين . . ثم شرعوا بعد ذلك فى حفر خنادق عميقة حول معسكرهم ، وعهد إلى رماة السهام بحراسة هذه الخنادق وجميع المنافذ المؤدية إلى داخل المعسكر ليحولوا دون وصول المصريين إليه .

وعلى الرغم من كل هذه الاحتياطات ، فإن حرب العصابات والكرّات الليلية هذه أخذت تتوالى على معسكر الفرنسيين بصورة أدخلت الرعب فى نفوسهم . . واغتيل حراسهم واحداً إثر الآخر ، وأسر كثير من رجالهم . . وكان الأسرى يصلون تباعاً إلى القاهرة وقد نكست أعلامهم . . ووقع فى أيدى المصريين ما يقرب من ثلاثمائة أسير من الفرنج خلال شهر واحد . .

وحدث فى إحدى هذه الغارات أن ظفرت البحرية المصرية بالقرب من البرلس بسفينة للعدو من النوع المعروف باسم مسطح بها عدد من المحاربين . .

بدأ الأسطول المصرى يؤدى مهمته الموكولة إليه بنجاح تام أثار قلق المعتدين ودهشتهم . . وبدأ يقطع الطريق على سفنهم ، وينازلهم فى معارك بحرية يخرج منها ظافراً . .

* * *

أصبح الدخلاء فى موقف لا يحسدون عليه . فلم يقتصر الأمر على الضربات التى أخذ المصريون فى كيلها لهم ، والهجمات التى كانوا يشنونها على معسكراتهم ليل نهار ، وحرب الكر والفر التى سببت لهم مضايقات كثيرة ، بل بدأت المئونة تنفد بسبب جشع التجار المتعهدين . . وأخذت العواصف الشديدة تتعاقب على الوجه البحرى ، حتى لقد تحطم عدد كبير من سفنهم الراسية على الشاطئ بقرب دمياط حيث دفعتها الرياح بعيداً ففدحت الخسارة فى الأرواح والعتاد .

وفى أخريات أكتوبر من نفس العام عادت السفن الشاردة التى جنحت بها الرياح نحو شواطئ سورية ، كما وصل إلى دمياط فى نفس الوقت ألفونس كونت بواتييه شقيق لويس التاسع قادما من فرنسا على رأس نجدة هزيلة تمكن من جمعها بعد عناء كبير .

وفى الحال جمع الملك الفرنسى مجلس مشورته لاختيار الطريق الذى يسلكونه بعد مغادرتهم دمياط : أيتجهون نحو الإسكندرية ، أم يسيرون قدماً إلى القاهرة ؟

احتدم الخلاف والنقاش بين الحاضرين ، فقال بطرس كونت بريتانى وهو من كبار النبلاء الذين اشتركوا فى الحملة :

— يجب علينا المسير إلى الإسكندرية والاستيلاء عليها أولا .. ثم التوجه إلى القاهرة بعد ذلك ، فسوف نجد فى هذا الثغر مرفأ يكون خير وكر لأسطولنا الذى تشتت شمله وتبعثرت قطعه .

وأيده فى هذا الرأى معظم قواد الجيش . ثم أضاف الكونت قائلا :

— أيها السادة ، إن الإسكندرية تفضل دمياط فى كثير من النواحى . . فهى كميناء أصلح لإيواء سفننا . . ويمكن استخدامها كقاعدة للإمداد والعدوان .. وإليها يستطيع أسطولنا أن يجلب المؤن والإمدادات من بلادنا دون جهد أو مشقة .

ولكن روبرت كونت أرتوا شقيق لويس لم يوافق على هذه الخطة واستهجنها قائلا :

— إنه لمن الحمق الذهاب إلى الإسكندرية . يجب أن نضع أيدينا بادئ ذى بدء على العاصمة ، فإن الاستيلاء عليها يستتبع حتما الاستيلاء على مصر كلها ، بل وعلى كافة البلاد العربية . إن من يريد أن يقتل الأفعى يجب أن يبدأ برأسها .

واستقر الرأى على الأخذ بالفكرة الثانية .

وتقرر بذلك مسير الجيش الصليبى جنوباً نحو القاهرة .

كانت هذه أضغاث أحلام سرعان ماتكسرت على صخرة الواقع المر المرير !!

شجرة الدر فى الميدان

وأخيراً فى يوم السبت العشرين من نوفمبر ، وكانت السفن الشاردة قد عادت إلى دمياط ، غادر الفرنسيون وعلى رأسهم الملك لويس المدينة بجدهم وحديدهم متقدمين نحو عاصمة الديار المصرية ، بعد أن تركوها فى حراسة جانب من قواتهم وبحارتهم . ولم يتمكن لويس من اصطحاب زوجته مارجريت التى اضطرت إلى البقاء بدمياط إذ كانت تعانى آلام الوضع . واتخذ الفرنج نفس الطريق الوعر الذى سار فيه أسلاف لهم من قبل ، فكان هذا من الأسباب التى عجلت باندحارهم .

غادر الفرنسيون دمياط وقد اشتدت وطأة المرض على الملك الصالح أيوب . وفى ليل الاثنين الثانى والعشرين من نوفمبر ، وكان ذلك بعد مسير الفرنج بيومين ، مات السلطان ، فكانت الطامة الكبرى .

مات الصالح أيوب والغزاة قد غادروا دمياط وأعدوا العدة للمعركة الحاسمة التى تفتح لهم الطريق إلى القاهرة ..

فى هذا الوقت العصيب برزت فى الميدان زوجة الملك الصالح شجرة الدر ، برزت لتؤدى دورها فى المعركة ، لقد أتت هذه المرأة من ضروب السياسة والدهاء ماحير الأعداء أنفسهم وما عجز عنه فحول الحاكمين .

فطنت أرملة الصالح إلى النتائج السيئة التى سيؤدى إليها حتما إذاعة موت زوجها بين صفوف الأعداء والأصدقاء على السواء ، وهى العليمة

الخبيرة بكل شيء .. إذ كان زوجها يرجع إليها للاستئناس برأيها وأخذ مشورتها فى المشكلات التى تعرض له ، وأدركت بثاقب نظرها أن ذلك سيضعف الروح المعنوية بين الجند وعامة الشعب ، وقد يؤدى إلى تشتيت شملهم والفرنج على الأبواب ، لذلك عزمت على إبقاء خبر موت السلطان سراً خفياً لا يعرفه إلا قائد الجيش الأمير فخر الدين يوسف بن الشيخ والطواشى جمال الدين محسن الصالحى وكان أقرب الناس إلى السلطان الراحل ، وإليه كان القيام بأمر المماليك البحرية ، ونجحت فى ذلك نجاحاً يدل على حسن تدبيرها وسعة حيلتها . .

تم كل هذا فى سرعة وهدوء دون جلبة أو ضوضاء ، وبعد ذلك وضعت جثة زوجها فى تابوت ، ونقلتها خفية من المنصورة فى سفينة صغيرة على النيل إلى القلعة القائمة فى جزيرة الروضة حيث كانت توجد ثكنات المماليك البحرية ، لقد آثرت إبعاد الجثة عن المعسكر ، بينما ظل الأطباء ملازمين لقصر السلطان ليظن الناس أنه مريض .

استمر كل شيء فى سيره الطبيعى كأن لم يحدث حدث ، فحسام الدين ابن أبى على نائب السلطنة بالقاهرة كان يتلقى الأوامر والمكاتبات من المعسكر بالمنصورة ، وكان الذى يملى هذه الأوامر شجرة الدر ، أما التوقيع فباسم السلطان الراحل ، إذ كان هذا التوقيع ضرورياً لجعل تلك الأوامر سارية المفعول ، وكان يقلد توقيع الصالح أيوب أحد خدمه ويدعى صواب السهيلى ، ولا يشك من رآه أنه خط السلطان ، وفى بعض الأحيان كانت شجرة الدر نفسها هى التى تقلد علامة السلطنة على الأوامر لبراعتها فى الكتابة .

ظلت الأعمال الرسمية تجرى باسم الصالح نجم الدين كما لو كان حياً، وكانت مائدته يمد سماطها، كما كان الأمراء يدخلون إلى السماط ويأكلون وينصرفون كل يوم كالمعتاد.. وإذا ماسأل فرد عن السلطان تحتج شجرة الدر عن تغيبه بأنه مريض ولا يمكنه مقابلة أحد.

وعلى الرغم من هذا التكتم الشديد، فقد ارتاب البعض فى الحقيقة وأدرك موت السلطان، ولكن أحداً لم يجرؤ على إبداء أية ملاحظة أو التفوه بكلمة خوفاً من الفرنج الذين طرقوا البلاد ووضعوا أيديهم على جزء منها.

٭ ٭ ٭

وكان للسلطان الراحل ثلاثة أبناء من زوجة له غير شجرة الدر تعرف ببنت العالمة، أكبرهم الملك المغيث فتح الدين عمر وقد مات وهو فى اعتقال الملك الصالح عماد الدين إسماعيل بدمشق، وأوسطهم الملك المعظم غياث الدين توران شاه وهو الوحيد الذى ظل على قيد الحياة، وأصغرهم الملك القاهر وقد مات فى حياة أبيه. كما أنجب نجم الدين ابناً رابعاً من زوجه الثانية شجرة الدر يدعى «خليل» مات هو الآخر فى حياة أبيه صغيراً.

وكان المعظم توران شاه فى ذلك الوقت نائباً عن أبيه فى حصن كيفا الواقع بين ديار بكر وجزيرة ابن عمر على نهر دجلة. فاتفقت شجرة الدر مع الأمراء على مبايعته بالسلطنة فى غيبته. فجمعت الأمراء وقواد الجيش فى المعسكر بالمنصورة، وقالت لهم إن السلطان الصالح أيوب

يأمرهم بأن يحلفوا له ثم من بعده لابنه المعظم . كما كتبت إلى الأمير حسام الدين فى ذلك . وهكذا حلف العسكر للملك الصالح نجم الدين ولابنه المعظم بولاية العهد من بعده . وأصبح يخطب للمعظم بعد أبيه على المنابر . ونقش اسمه على الدراهم والدنانير بعد اسم أبيه .. تم كل ذلك ولم يكن قد أعلن موت السلطان بعد .

بعد ذلك بعثت شجرة الدر والأمراء فى طلب المعظم من الحصن .. وأسرع الرسل والقصاد واحداً إثر الآخر يستعجلون حضوره فى الوقت الذى كانت فيه البلاد مهددة من قوات العدوان ، وفى أمس الحاجة إلى رجل محنك اعتاد الحكم وله بعض الخبرة بشئون الحرب ليدير أمورها ويخرج بها سالمة من هذه المحنة . وعهدوا إلى الأمير فخر الدين بقيادة الجيوش وتدبير شئون المملكة إلى أن يصل المعظم من الحصن ..

الفرنسيون فى الطريق إلى المنصورة

فى هذه الفترة العصيبة من تاريخ البلاد التى أعقبت موت السلطان الصالح أيوب ، ترك الفرنسيون دمياط وتقدموا جنوباً نحو القاهرة ، وأسطولهم فى نهر النيل يحاذيهم ، وقد اعتقدوا بعد أن وقعت دمياط فى أيديهم أنهم سوف لايلاقون صعوبة فى الاستيلاء على عاصمة الديار المصرية ، ساخرين من فكرة المقاومة التى قد يبديها المصريون خلال الطريق . .

وكان الطريق الذى سلكوه عبارة عن منطقة مثلثة الشكل فى الشمال الشرقى من بحيرة المنزلة التى كانت تعرف وقتذاك ببحيرة تنيس . . ويسمونها جزيرة دمياط لأنه يحدها من الشمال الغربى فرع دمياط ومن الجنوب الشرقى بحر أشموم ، ومن الشرق بحيرة المنزلة . . وهى منطقة مليئة بالعقبات والعراقيل ، إذ تعترضها الترع والمجارى المائية الكثيرة السريعة الجريان المتفرعة عن الفرع الشرقى للنيل ، والتى تجعل المرور فيها صعباً خطيراً . فكانت أشبه بشبكة الصائد ، وتصلح لأن تكون أفخاخاً للإيقاع بالجيش المغير . . وغير ذلك فإنها تمر بعدد من مراكز الدفاع القوية التى يمكن القوات المصرية استغلالها ضدهم . .

وحدث أن اضطر الفرنج إلى التوقف فى أثناء مسيرهم لسد إحدى القنوات بالقرب من دمياط لتسهيل مرور قواتهم . . وما كانوا يدرون أنهم يمهدون الطريق لحتفهم . .

استأنف الفرنج مسيرهم في بطء شديد حتى بلغوا قرية فارسكور في يوم الخميس الثاني من ديسمبر دون أن تواجههم مقاومة جدية من جانب القوات المصرية التي كانت قد أعدت عدتها لاستدراجهم والاشتباك معهم داخل المنصورة ..

كانت المنصورة هي الملتقى والمكان الموعود ..

الجهاد المقدس

« وأعِدّوا لهم ما استطعتُم من قُوّةٍ ومن رِبَاطِ الخَيْلِ » .

وفى اليوم التالى لوصول قوات لويس فارسكور، أرسل الأمير فخر الدين من المعسكر بالمنصورة كتاباً إلى القاهرة جاء فى أوله: «انفروا خِفافاً وثِقالا ، وجاهدُوا بأموالكُم وأنفُسِكُم فى سَبِيلِ اللهِ ، ذَلِكُم خَيْرٌ لكم إنْ كنتم تعلمونَ » . وفيه يحض الناس على الجهاد ضد الفرنسيين ، والتطوع فى الحرب المقدسة لقتال أولئك الغزاة ودفعهم عن البلاد . . وقد قرئ هذا الكتاب على أفراد الشعب على منبر الجامع الأزهر . .

وأخذت الكتب تتوالى على القاهرة فى الحض على الجهاد ، وجاء فى أحدها : « كُتِبَ عليكم القتالُ وهو كُرْهٌ لكم ، وعسى أن تكرَهوا شيئاً وهو خيرٌ لكم ، وعَسَى أن تُحِبُّوا شيئاً وهو شرٌ لكم ، والله يَعلَمُ وأنتم لا تَعلَمونَ » .

حركة غير عادية فى العاصمة . . نشاط فى كل مكان . . الخطب تلقى فى المساجد والكنائس لحث الناس على الجهاد . . المظاهرات تسير مطالبة بسحق العدو ، والناس يحيون حياة الحرب . . الصيحات تعلو منذرة مهددة متوعدة . . الجميع يتطوعون فى سلك الحرب المقدسة . . الآباء والأبناء . . الشيوخ والأطفال والنساء . . الجميع يسارعون للذهاب لملاقاة

المعتدين . . كل فرد يريد أن يكون له قصب السبق فى الفتك بأعداء الوطن . . أعداء الله .. وكل منهم يريد أن يكون شهيد المعركة . . فالموت فيها استشهاد فى سبيل الله بل هو حياة باقية فى الدار الآخرة . . « ولا تقولوا لِمَنْ يُقْتَلُ فى سَبِيلِ اللهِ أمواتٌ بَلْ أَحْيَاءٌ ولَـكِنْ لاَ تَشْعُرُونَ » .

اجتاحت البلاد عاصفة من الحماسة الملتهبة ، وأخذ الزحف المقدس يسير من العاصمة شمالا صوب المعسكر المصرى فى المنصورة . . وكان فى كل مكان يمر به تنضم إليه جموع أخرى . .

استعدادات متواصلة . . كتل متراصة . . أيد متشابكة . . وجوه يعلوها العزم والإصرار . . حناجر تزأر فى صوت واحد . . « الموت للعدو . . الفناء للفرنسيين . . البقاء لك يامصر . . النصر للمصريين . . »

الفرنسيون أمام بحر أشموم

فى هذا الوقت الذى عبأت فيه البلاد قواها وأعدت عدتها ، ظل الأعداء يواصلون السير ، مسرعين تارة ومتباطئين أخرى ، حتى وصلوا إلى قرية شارمساح فى الثامن من ديسمبر ، وهى قرية كبيرة كالمدينة من قرى مديرية الدقهلية . . وفى الرابع عشر من نفس الشهر بلغوا البرمون الواقعة على الجانب الشرقى للنيل إلى الجنوب من فارسكور . . وبذلك أصبحوا على مقربة من القوات المصرية التى تقيم جنوبى بحر أشموم . . وأخيراً فى يوم الثلاثاء الحادى والعشرين من ديسمبر بلغوا طرف جزيرة دمياط ، ونزلوا قبالة المصريين شمالى بحر أشموم ، ولا يفصل بين المعسكرين غير هذا البحر . .

والواقع أن هذه كانت أول عقبة جدية تصادف الحملة منذ قيامها ، ومن ثم ألقت هنالك رحلها ، واضطرت إلى المرابطة فى انتظار ما قد تتمخض عنه الأيام من تطورات وأحداث لا يعلم مداها إلا الله . .

أما ذلك الحاجز الطبيعى الذى قام فى وجوه المغيرين ، فهو ترعة صغيرة تسمى بحر أشموم تقطع على الحملة الطريق بين دمياط والقاهرة . . إذ ينقسم فرع دمياط شمالى المنصورة إلى فرعين ، يتجه أحدهما إلى دمياط ، وينحرف الآخر فى اتجاه شمالى شرقى حيث يمر بمدينة أشموم طناح إلى أن يصب فى بحيرة المنزلة . . وهذا الفرع هو المعروف ببحر أشموم . وقد تغير مجراه منذ ذلك الحين تغيراً كبيراً ، فهو الآن يتفرع

عن الفرع الشرقى للنيل فى نقطة قريبة جداً من المنصورة ، بينما كان موضع التقائه حينذاك يبعد عن تلك المدينة إلى جهة الشمال نحو أربعة أميال أو خمسة . .

وعلى الرقعة الواقعة فى هـذه المسافة كانت ترابط القوات المصرية التى وقفت متأهبة للقاء الغزاة . . وهناك وقعت بين قوى الحق والإيمان وقوى الباطل والعـدوان معركتان كبيرتان كان من أثرهما التعجيل بخاتمة هذه الحملة . .

أما المنصورة التى عاشت فى ذلك الوقت أمجد أيامها ، فهى التى بناها الملك الكامل محمد والد الصالح أيوب على الجانب الأيمن لفرع دمياط عند مفترق النيلين إلى دمياط وأشموم طناح . . بناها لصد عدوان سابق قام به الفرنج عندما حاصروا دمياط واستولوا عليها قبـل ذلك التاريخ بثلاثين سنة . . وما زالت مدينة المنصورة القديمة فى موقعها التى وجدها فيه الفرنسيون الغزاة عندما أغاروا على مصر فى ختام القرن الثامن عشر الميلادى بقيادة نابليون بونابرت ، غير أنها اتسعت بعدئذ اتساعاً عظيماً خصوصاً من ناحية الشرق . .

وقد انتصرت المنصورة على الفرنسيين فى عهـد الكامل محمد وكانت تسميتها بهذا الاسم تيمناً بالنصر الذى أحرزته . . وسوف تنتصر عليهم هـذه المرة أيضاً لتضيف إلى مفاخرها مفخرة أخرى ، وإلى أمجادها مجداً جديداً . .

على أى حال ، عند ما وصل الفرنسيون قبالة بحر أشموم ، أقاموا

معسكرهم على الضفة الشمالية منه .. وأصبح هذا البحر حاجزاً بين معسكرهم ومعسكر المصريين الذى كان يوجد على الضفة الجنوبية على تل مرتفع يعرف باسم « جديلة » ، مرابطاً فى وجه الأعداء لمنعهم من عبور القناة والتقدم نحو الجنوب . . وجديلة هذه كانت تطل على الشاطئ الجنوبى لبحر أشموم على بعد ثلاثة كيلومترات شمال شرقى المنصورة ونحو كيلومتر إلى الشرق من فرع دمياط . ولا تزال جديلة هذه باقية إلى اليوم ، وهى من ضواحى المنصورة .

وبدأ كل من الفريقين يستعد للمعركة الحاسمة . .

* * *

« إِنْ يَنصُرْكُمُ اللهُ فلا غَالِبَ لَكُمْ » .

كان أول ما اهتم له الأعداء هو تأمين أنفسهم فى مركزهم الجديد . . فأخذوا يحصنون معسكرهم ، وحفروا حوله الخنادق ، وأقاموا المتاريس وابتنوا سوراً وستروه بالستائر . . فلما تم لهم ذلك نصبوا المنجنيقات وقاذفات الأحجار ، وهى آلات التدمير التى تقذف الأحجار والمواد الحارقة . . ونزلت سفنهم بإزائهم فى نهر النيل ، والسفن المصرية بإزاء المنصورة . .

وسرعان ما بدأت المناوشات بين الجيشين . . ففى الحادى والعشرين من ديسمبر بعث الأمير فخر الدين جانباً من قواته شمال هذه القناة حيث يقيم الفرنج ، وكان ذلك عن طريق ممرات سرية لمباغتتهم فى معسكرهم . وقد

تمكنوا من مفاجأة العدو الذى غرق بعض رجاله فى النهر عند محاولتهم الفرار . .

وبعد ذلك بأربعة أيام أمر القائد المصرى جماعة من جنده بمعاودة الهجوم على الفرنسيين فى برهم . . واندفع المصريون صوب معسكر الأعداء باذلين سيوفهم فيمن التقوا بهم ، وقفلوا بعد ذلك راجعين إلى مراكزهم . .

وهكذا أخذ المصريون يشنون الغارات على المعسكر الفرنسى بين الحين والآخر.. كما أخذوا يوجهون إلى المغيرين ضربات متفرقة عبر بحر أشموم ..

أما الشعب فقد وقف أمام الغزاة كالصخرة الثابتة ، وهى صخرة لا تلين ولا تتزعزع . فكفاحه منبعث عن عقيدة راسخة وإيمان صادق وعن رغبة حقيقية فى الجهاد . وإن إخلاص أبناء الشعب لهذا الاعتقاد دفاعاً عن كيانهم ضد أولئك المغيرين كان يفوق إخلاص الصليبيين له .. وكان الفرنسيون يجدون منهم أذى كثيراً . . فكانوا يتصيدونهم ، ويجهزون على كل من تصل أيديهم إليه . . فإذا شعر بهم الفرنج ، ألقوا بأنفسهم فى الماء وسبحوا إلى أن يصلوا إلى الجانب الذى فيه المصريون ..

وتفتقت أذهان الأهالى عن كثير من الخدع والحيل التى لجأوا إليها لمضايقة أعدائهم . . فكانوا يتفننون فى اختطاف الفرنج وأسرهم بكافة الطرق التى تدعو إلى الدهشة والغرابة . . من ذلك أن أحد أفراد الشعب قوّر بطيخة خضراء ووضعها على رأسه وغطس فى الماء حتى حاذى الفرنج فظنه بعضهم بطيخة طافية على الماء ، ولما نزل لأخذها خطفه ذلك الشخص وأتى به أسيراً إلى معسكر المصريين . .

وإزاء هذه الهجمات المتكررة والضربات المتلاحقة أمر الملك لويس بحفر الخنادق حول معسكره . . وأصبحت المياه تحيط به من جميع الجهات فالقناة تقع إلى جنوبه وفرع دمياط فى الغـرب ، والخنادق تحيط به من ناحيتى الشمال والشرق .. وخيل إليه أنه أصبح فى مأمن من أن يصيبه أذى أو مكروه . . وخيل إليه أن الأمور ستسـير وفق هواه ! ولـكنه لم يكن يدرى أن ساعة الصفر قد قربت . . وأن النهاية آتية لاريب فيها ..

وحدث أن علم جواسيس الفرنسيين باعتزام القائد المصرى مهاجمة معسكرهم ، فأسرع لويس بمضاعفة الاحتياطات.. فكان على أخيه روبرت كونت أرتوا حراسة معدات القتال ، بينما كلف شقيقه الآخر شـارل كونت انجو بحراسة المعسكر من الناحية الجنوبية . أما شقيقه الثالث ألفونس كونت بواتييه ومعه نبلاء شامبانيا ، فـكان عليهم الدفاع عن المعسكر من الشمال من ناحية دمياط . .

ظن لويس أنه ضمن المعركة . . وأخذ يفرك يديه طرباً وسروراً .. وكيف لا والرقابة مشددة والاحتياطات قائمة على قدم وساق ؟! ونسى أنه أمام رجال أقوياء أشـــداء .. أقوياء بإيمانهم .. أقوياء بوحدتهم وتضامنهم .. أشداء بمعداتهم وسلاحهم .. نسى كل هذا .. أو لعله تناسى كل هذا !

وفى العشرين من يناير من عام ١٢٥٠ أصـدر الأمير فخر الدين الأوامر إلى قواته بالعبور إلى البقعة الـكائنة بين فرع دمياط والضفة الشمالية لبحر أشموم حيث يوجد المعسكر الفرنسى .. واصطفت القوات المصرية فى نظـام رائع بديع من أحد النهرين إلى الآخر . . وسرعان

مانشب القتال . . اندفع المصريون صوب كونت انجو وقواته ، وفى حركة بارعة التفوا حولهم وأنزلوا بهم أقسى الضربات ، حتى أن الكثيرين منهم غرقوا فى النهر .. وأسرع أحد قواد الفرنج لمعاونة شارل .. لكن القوات المصرية أوقعته على الأرض وكسرت إحدى ساقيه ، فحمله اثنان من رجاله إلى داخل المعسكر .. ومن الشمال أخذ الفونس كونت بواتييه وفرسان شامبانيا فى مطاردة قوات فخر الدين التى اندفعت نحوهم وأطبقت عليهم من كل جانب ..

وقد خرجت العساكر المصرية من هذه المعركة ظافرة دون أن تلحق بها أية خسارة ، وبعد أن فتكت بعدد كبير من فرسان الفرنج وأسرت الكثير من أكابر قومهم .. واقتيد الأسرى إلى العاصمة فى زفة حماسية . .

* * *

هكذا كانت هذه الفترة منذ وصول الفرنسيين قبالة بحر أشموم . . قتالا مستمرا بين الفريقين يكاد لاينقطع .. فالأعداء يلقون الحجارة من آلاتهم ومعداتهم على المصريين عبر القناة عليهم يزحزحونهم عن مواقعهم .. ولكن دون جدوى .. والعساكر المصرية ترد لهم العدوان مرتين والكيل كيلين .. وهكذا حمى وطيس القتال والتراشق بينهما ليل نهار حتى فدحت الخسارة فى المعسكر الفرنجى فى الأرواح والعتاد ..

ارتسمت علامات الكآبة والحزن على وجه الملك الفرنسى الذى بات مغلوباً على أمره لايدرى ماذا يفعل ، ومن أين يبدأ ، وإلى أين ينتهى به المطاف . . لقد أدرك أنه لايستطيع الغلبة على المصريين إلا إذا

التحم معهم فى معركة يشترك فيها الجيشان بكامل قواتهما وجهاً لوجه . . وحتى هذه المعركة لم تكن مضمونة النتائج بالنسبة له . . ولا سبيل إلى هذا وبحر أشموم يفصل بينه وبينهم ..

وأخيراً هداه تفكيره إلى محاولة بناء جسر على هذا البحر ليعبر عليه جنوده إلى الضفة الأخرى حيث يوجد المعسكر المصرى . .

وفعلا بدأ الفرنج فى تشييد هذا الجسر وقد داعبت جفونهم الآمال الحلوة .. ولكن مهمتهم لم تكن سهلة ، حسبما كانوا يتوهمون ، تحت هذا السيل الجارف من القذائف والأحجار التى أخذ يمطرهم بها المصريون . . حينئذ أمر لويس بإقامة حاجز مرتفع فى أعلاه برجان من الخشب يقف عليهما حملة القسى للدفاع عن العمال عند قيامهم ببناء الجسر . .

تركهم المصريون يشيدون أبراجهم .. واكتفوا بإعداد آلاتهم التى تقذف الأحجار والمواد الملتهبة الحارقة على طول الضفة الجنوبية لبحر أشموم فى مواجهة معسكر العدو . . فلما انتهى الفرنسيون من تشييد البرجين بدأوا فى عمل الجسر وقد ملأتهم الحماسة ظناً منهم أن الأمور ستسير وفق هواهم .

ولكنهم كانوا واهمين ..

كان المصريون يبزونهم فى فن الهندسة .. فبمجرد أن تم تشييد الجسر ، إذا بالفرنج يرونه يتداعى وينهار .. وتتداعى معه آمالهم وتنهار أحلامهم .. فإنه حينما أبصر المصريون هذا الجسر يمد على القناة ، بادروا بحفر خنادق عميقة ملاصقة لطرفه الذى فى ناحيتهم ، ومن ثم كانت مياه

النيل تأتى متدفقة فلا تجد منفذاً لها غير هذه الحفائر فتندفع فيها وتملؤها . وهكذا كانوا يفسدون عليهم فى يوم واحد ما كانوا ينجزونه فى عدة أسابيع ..

ويا ليت الأمر قد وقف عند هذا الحد .. إذن لهان الخطب .. فقد أدرك العدو كذلك أن المصريين يتفوقون عليه فى استخدام أدوات الحرب وآلات القتال ..

لقد ظهر فى ميدان القتال فى تلك الفترة سلاح أشد فتكاً من كل آلات الحرب آنذاك .. سلاح لم يكن للفرنج أنفسهم عهد به من قبل .. سلاح سيذيقهم الهوان ألوانا .. ذلك السلاح هو النار الإغريقية التى أزعجتهم ، وألقت الرعب فى أفئدتهم ، وأوقعت الخبل فى صفوفهم ، والتى حطم بها المصريون كل ما أعده الغزاة للهجوم الحاسم .

كانت تلك النار تندفع نحو الأعداء على هيئة كرة كبيرة ، وذيولها من خلفها كحراب طويلة هائلة ، لها دوى مزعج كدوى الصاعقة المنقضة من السماء ، ولها صوت يهزم كالرعد القاصف .. وهى أشبه ماتكون بتنين هائل طائر فى الجو .. وكانت النار المنبعثة من هذه الكتلة الهائلة من اللهب تلقى فى معسكر الفرنسيين ضوءاً متوهجاً يجعل الرؤية واضحة تماماً كما لو كان الوقت نهاراً .

استولى الذعر والفزع على الفرنج أمام هذا السلاح الجديد الفتاك .. وباتوا فى خطر داهم لم يتعرضوا لمثله من قبل .. خطر فيه هلاكهم وفناء محقق لهم ..

وسرعان ماوضع المصريون قاذفات النار هذه تجاه الصليبيين لكى يحطموا البرجين .. وفى غسق الليل رموا بها الفرنج ، فاندلعت النيران فى

البرجين الخشبيين والتهمتهما .. وحاول لويس بناء برجين آخرين ، ولكن محاولته هذه لم تكن بأحسن من سابقتها .. إذ سرعان ماسلط المصريون نيرانهم على الصليبيين ومعداتهم .. وللمرة الثانية تندلع ألسنة اللهب فى البرجين ويحترقان ويصبحان أثراً بعد عين . .

وهلل جند مصر على الجانب الآخر من النهر ، وقد غمرهم السرور وهم يرون أبراج أعدائهم تتهاوى وتتحول إلى جبال من نار .. بينما أخذ الأهالى يرقصون ويقفزون من شدة الفرح .. وكانت تصل الفرنج أصوات المصريين وهم يهللون ويهتفون .. « الله أكبر ... الله أكبر » .

وبدأ دبيب اليأس القاتل يدب فى نفوس الفرنسيين . . لقد أعيتهم الحيلة ، كما أفقدتهم هذه النار الجهنمية رشدهم وصوابهم . .

قال أحد كبار قوادهم :

— أيها السادة .. نحن فى خطر داهم لم نتعرض له من قبل ، لأن العدو لو صوب النيران نحونا مرة أخرى وبقينا فى أماكننا لهلكنا . . ولو أننا غادرنا مراكزنا للحقنا العار . . فلا منفذ لنا من هذا الخطر إلا الإذعان والاستسلام . .

ولم يكن لويس نفسه أقل جزعاً من رجاله . . وكان كلما رأى المصريين يقذفون معسكره بالنيران الإغريقية ، وقف على سريره ، ورفع يديه إلى السماء مستغفراً وعيناه مبتلتان بالدموع :

— نعم .. إما هلاك محقق .. أو عار مشين .. لقد زرعنا الشوك فلن نجنى إلا الشوك .. لتكن مشيئة الله . .

حينئذ لم يبق للصليبيين حيلة، وفترت روحهم المعنوية .. إذ ذهبت محاولتهم فى عبور القناة ومواصلة الزحف أدراج الرياح .. فاستدعى الملك الأمراء والنبلاء، وراحوا يقلبون الأمر على وجوهه، ويتداولون فيما ينبغى اتخاذه فى هذا السبيل المظلم.

قال لويس موجهاً الحديث إلى مستشاريه وقد تملكه اليأس :

— أيها السادة . . أرى ظلاماً دامساً لا أكاد أستبين منه أى أمل لنا . . بل أرى سحابة كثيفة قاتمة تخيم علينا . . فبماذا تشيرون ؟

ويسدى إليه القاصد الرسولى النصح قائلا :

— أرى يا مولاى التراجع من حيث أتينا . . فهذا أشرف لنا وأكرم .. وإلا فالويل لنا . . لقد فقدنا عدداً كبيراً من رجالنا وعُدَدِنا فى سبيل القيام بمحاولة خرقاء، أعنى محاولة عبور هذا المجرى المائى أمام عدو قوى متأهب لمواجهتنا ونزالنا . .

ويبدو أن الملك لم يستحسن قول القاصد، فتكلم بحدة وانفعال :

— ويحك . . ماذا تقول ؟ أتريد أن تقضى على الروح المعنوية فى الجيش ؟ أتريد أن تلحق بنا الهزيمة والعار ؟ ألا يكفيك ما لحق بقومنا فى الماضى القريب والبعيد ؟ أتبغى مزيداً من الخيبة والفشل ؟ لا . . لا . . إننا لن نتراجع قبل أن نحقق الغرض الذى قدمنا من أجله . .

وفيما هم كذلك، والنقاش على أشده أقبل أحد جواسيسهم فرحاً متهللا وقال :

— لقد عثرت يا مولاى على مخاضة فى بحر أشموم، ماؤها ضحل غير

عميق ، وهى بعيدة عن أعين الرقباء ، ويستطيع فرساننا عبورها على خيولهم دون مشقة كبيرة فى مأمن تحت جناح الليل . .

ولم يصدق لويس أذنيه وسأل الجاسوس فى لهفة :

ـ أحقاً ما تقول يا جوتييه ؟ وأين تقع هذه المخاضة ؟

فأجابه جوتييه قائلا :

ـ تقع عند سلمون . . (وسلمون هذه يا سيدى قرية من قرى مديرية الدقهلية بمركز دكرنس على الشاطئ الشرقى لبحر أشموم جنوبى دكرنس) . .

فقال لويس :

ـ إذن ليذهب بعض رجالنا للتثبت من صحة ذلك . . ولنعد العدة لعبور القناة . .

فرح الصليبيون بهذا الكشف وظنوه كسباً لهم ! فقد قضى جيشهم حوالى شهرين قبالة المنصورة وبحر أشموم يفصل بينهم وبين المصريين . . وأدرك لويس أنه يجب ألا يترك وسيلة لعبوره مهما كان هناك من أخطار ، ومهما بلغ عمق المخاضة التى كان عليه أن يعبرها هو وفرسانه فى مواجهة أسود مصر ، مع علمه باستحالة حصوله على مساعدة من مشاته .. ولكن هذا كان على أى حال أهون من بقائهم فى أماكنهم فى انتظار موت بطىء ..

وكأنما أراد ملكهم أن يعجل بالخاتمة ، ولو كانت مرة أليمة . .

موقعة المنصورة الأولى

وفى يوم الاثنين السابع من فبراير عام ١٢٥٠م ، عقد ملك الفرنسيين مجلساً ثانياً من الأمراء والقواد اتفق فيه على تفاصيل خطة الهجوم للمعركة المنتظرة التى كانوا يهدفون من ورائها إلى الاستيلاء على المنصورة ، ومواصلة الزحف جنوباً إلى القاهرة . . !

كان على لويس نفسه ومعه إخوته الثلاثة والجانب الرئيسى من الفرسان السير إلى المخاضة وعبورها فى فجر اليوم التالى إلى الضفة الجنوبية لبحر أشموم حيث يوجد المعسكر المصرى . . بينما تقرر أن يقوم بحراسة المعسكر الفرنسى على الضفة الشمالية للقناة جانب من الجيش يتألف من المشاة ورماة السهام تحت قيادة أحد رجالهم وهو دوق برجنديا . . وكان على هؤلاء عند ما يتم عبور الملك وفرسانه ويستولى على المعسكر المصرى ، إستكمال بناء الجسر لتعبره فرقة المشاة وتلحق بقائدها . . وبذلك يكون مشاة الصليبيين على اتصال بفرسانهم داخل المنصورة نفسها . .

وكانت القوات التى ستعبر المخاضة تنقسم إلى ثلاثة أقسام . . فنى الطليعة فرقة روبرت كونت أرتوا ويصحبه أيضاً جماعة الفرسان الداوية بقيادة رئيسهم وليم دى سوناك ، والفرقة الإنجليزية المزيلة التى جمعها من إنجلترا وليم طويل السيف حاكم مقاطعة سالسبورى ، وذلك مشاركة رمزية من إنجلترا فى الحملة ، إذ كانت أحوالها الداخلية وقتذاك لا تسمح

لها بالاشتراك فى حرب فعلية خارج أراضيها . . وكان مع المقدمة أيضاً فرقة الخيالة الملكية من حملة القسى . . تأتى بعد ذلك المجموعة الثانية من القوات وهى تتألف من فرسان شامبانيا ، وكان على رأسها شارل كونت انجو . . ويتكون القسم الثالث من الملك وفرسانه ومعه ألفونس كونت بواتييه . .

وكان على رجال المقدمة عبور المخاضة إلى الجانب الغربى ، ومباغتة المصريين والاستيلاء على معسكرهم ، ثم التوقف عن القيام بأى عمل هجومى ، والانتظار إلى أن تعبر القوة الرئيسية من الفرسان تحت قيادة الملك لويس . . وحينئذ يمكن هذه القوات مجتمعة مواصلة الزحف . .

وتقدرون فتضحك الأقدار . .

كانت الخطة كما يبدو محكمة متصلة الأطراف . . ولكن قوة الجيش المصرى واتحاد الشعب ، ورغبة الجميع التى تنبعث عن عقيدة وإيمان صادقين فى الجهاد ضد المعتدين ، والدفاع عن كل شبر من أرض الوطن ، بالعرق والدم . . كان كل هذا كفيلا بإحراز نصر مبين . .

* * *

وفى فجر الثلاثاء الثامن من فبراير توجه الجيش الصليبى إلى المخاضة يتقدمه الجاسوس . . وكانت عملية العبور شاقة بطيئة ، لأن هذا الممر المائى كان أكثر عمقاً وأشد خطراً مما توقع الأعداء . . وقد اضطرت جيادهم إلى الخوض سباحة . . كما لاقوا هم أنفسهم صعوبة فى الوصول

إلى الضفة الجنوبية نظراً لارتفاع الشاطئ وكثرة أوحاله . . وغرق عدد كبير منهم فى الماء عند محاولتهم العبور . .

وعند ما تم لهم ذلك ، شنت مقدمة الجيش ، التى تتألف من كونت أرتوا وفرسانه وكونت سالسبورى وفرسانه وجماعـــة الداوية وهم من الرهبان المحاربين ، هجوماً خاطفاً على المصريين وعلى المساكن الكائنة فى ضواحى المنصورة . . ولم يرفق أولئك القوم بأحد ، ولم يرعوا حرمة النساء أو الشيوخ والأطفال ؛ بل كانوا يقتلون كل من يصادفونه فى طريقهم دون رحمة أو هوادة ، ويخبطون فى ذلك خبط عشواء . .

لقد تجرد الوحوش الضوارى من إنسانيتهم وآدميتهم ، وانحطت القيم الخلقية عندهم ، فأصبحوا لا يفترقون عن الحيوانات فى أدغالها . . وكأنهم قد أرادوا الانتقام لما حل بهم من بلايا من نساء وشيوخ وأطفال لا حول لهم ولا طول . . جرائم بشعة يرتكبونها فى حق شعب مسالم أبى دون احترام للسن أو الجنس . .

ولم يكونوا يعتقدون أنهم سيدفعون الثمن غالياً من سمعتهم وشرفهم وكرامتهم . . فقد كان الشعب والجيش فى انتظارهم داخل المنصورة نفسها . . المنصورة التى ستشهد أياماً من أمجد أيامها . . أياماً كلها عزة وفخار . .

* * *

كان الأمير فخر الدين ، قائد القوات المصرية عند ما وصل الفرنسيون إلى الضفة الجنوبية لبحر أشموم وباغتوا المعسكر المصرى ، فى الحمام يغتسل . . وعند ما بلغه النبأ ، ولم يكن يخطر على باله أن يهاجمهم

الأعداء من هذه الناحية ، خرج مسرعاً واعتلى صهوة جواده دون أن يلبس درعه . . وانطلق وخلفه باقى المماليك والجند . . والتحموا مع العدو فى معركة دامية ، واقتحموا صفوفه فى شجاعة فائقة ، وشنوا عليه هجوماً شديداً . .

وفى تلك الأثناء . . وبينما القتال على أشده . . إذا بفارس فرنسى يوجه إلى فخر الدين طعنة غادرة من الخلف . . ولكن القائد المصرى تحامل على نفسه ، والتفت ليوجه ضربة بسيفه إلى خصمه أصابت منه مقتلا . . ثم وجد نفسه محاطاً بعدد من الأعداء والدماء تنزف منه بغزارة . . ومع ذلك ظل شاهراً سيفه يضرب ذات اليمين وذات الشمال، ولكن فى قوة خائرة وضعف واضح . . وما هى إلا لحظات حتى أخذته السيوف من كل جانب . . فسقط فى ساحة الشرف مثخناً بالجراح ، ولفظ أنفاسه الأخيرة وهو يدعو إلى الكفاح ضد المعتدين وتطهير البلاد من دنسهم وأدرانهم . .

* * *

« وقاتِلُوا فى سبيلِ اللهِ الذين يُقاتِلُونَكُم » .

كان هذا هو ناقوس الخطر . . بل بداية النهاية لقوات البغى والعدوان . . وكان كل شىء يبدو هادئاً فى الميدان ، وإن أخفى بين طياته العديد من المفاجآت التى لم يحسب لها الفرنج أى حساب . .

كانت جموع الشعب قد وصلت إلى المنصورة من كل فج ، وأخذ كل مكانه ليؤدى دوره فى المعركة . . معركة الحياة أو الموت . . معركة

البقاء أو الفناء .. معركة فى سبيل الحرية والكرامة والاستقلال .. وكانت القوات المصرية تعد العدة لليوم الفاصل .. يوم أوله لها وآخره على الأعداء ..

أصبحت المنصورة ، وهى المدينة الوادعة الهادئة ، بركاناً يغلى ويعد حممه ليقذف بها فى وجوه المعتدين ..

ملأ الغرور قلب روبرت شقيق الملك الفرنسى ، وأصر على الزحف على المدينة دون تمهل ، ودون تقدير للعواقب الوخيمة التى سوف تنجم عنه .. بل دون الانتظار ريثما يصل لويس مع باقى القوات ويتكامل عددهم .. أراد أن يحرز نصراً سريعاً ، وهو لا يعلم أنه بذلك يدق مسماراً كبيراً فى نعش قومه ..

وقد عارض رئيس جماعة الفرسان الداوية هذه الخطة المرتجلة ، وحذر كونت أرتوا من مغبة تهوره وأنه سيورد المقدمة مورد التهلكة قائلا :

ـــ إذا كنت تبحث عن المتاعب فستجدها .. نحن لا نخشى شيئاً وسوف لا نتخلف ، بل سنذهب معكم .. ولكن اعلم جيداً أننا لن نعود من هذه المعركة .. فنحن أعلم منكم بالمصريين ووسائلهم فى القتال ، إذ سبق أن اشتركنا ضدهم فى حروب كثيرة ، وعانينا منهم الأمرّيْن ..

وهنا تدخل الفارس الإنجليزى وليم طويل السيف فى النقاش مشيراً بما نصح به رئيس الداوية ، فكان هذا مما زاد النزاع حدة ..

وقال روبرت فى صلف وكبرياء :

ـــ نحن فرسان فرنسا نعرف كيف نواصل القتال .. وكيف ننهى المعركة ..

— نعم . . ستنتهى المعركة . . ولكن العواقب ستكون وخيمة . . ولن ينفع الندم بعد أن تزل القدم . .

كان هذا هو رد وليم دى سوناك رئيس الداوية . . وكان يحمل الكثير من المعانى .. إذ لم تمض ساعات حتى تحققت نبوءة رئيس الداوية ونال روبرت ومن معه جزاءهم . .

الشعب فى المعركة

لم ينتصح روبرت بما قاله له زملاؤه من رجال المقدمة ، ولم ينتظر وصول باقى القوات ، إنما اندفع بفرسانه داخل المنصورة وفى أثره باقى الصليبيين وهم يرزحـــون تحت خوذهم ودروعهم الثقيلة على طريقة الحرب فى تلك العصور . . وهكذا بدأت المعركة الثانية دون أى نظام ، بل ودون قيادة موحدة أو خطة مرسومة . . كما كان الانشقاق باديا بين رجال المقدمة ، هذا فى الوقت الذى لم يعبر فيه بعد الجانب الرئيسى من الجيش المغير بحر أشموم . .

وفى تلك الأثناء كان الجيش المصرى قد استجمع قواه ، وأعاد ترتيب قواته . . وكان من حسن حظه أن وجد له رئيساً جديداً فى شخصية ركن الدين بيبرس البندقدارى قائد المماليك البحرية ، والذى غدا سلطاناً على مصر بعد عشر سنوات من ذلك التاريخ . .

ظل كونت أرتوا ورجال الطليعة فى تقدمهم الطائش فى أرض غير أرضهم وملك غير ملكهم ، حتى بلغوا باب قصر السلطان بالمدينة . . وهنا باغتهم الجيش المصرى من كل جانب . . وسد عليهم الطرق والمنافذ . . وأخذ يرميهم بالنفط والأحجار والمواد الملتهبة . . وهم يجرون هنا وهناك فراراً من هذا الجحيم المستعر الذى ألقوا بأنفسهم فيه . . وكأنهم يتوقعون معجزة تنقذهم من سوء المصير . . ولكن هيهات . .

اشتدت المطاردة . . وحمى وطيس القتال . . وأخذت القوات

المصرية تتعقب الفرنسيين فى شوارع المدينة وأزقتها ودروبها . . فلما لاذوا بالبيوت يريدون الاحتماء بها ، كانت تنتظرهم المفاجأة الكبرى التى ألجمت ألسنتهم ، وأطارت صوابهم . .

بدأت المقاومة الشعبية فى أداء مهمتها . . إذ أقام الأهالى المتاريس فى الطرقات . . وكانت النساء إلى جانب الرجال يحفرون الخنادق ويقيمون الموانع حولها . . واتخذ السكان من منازلهم حصوناً ومن شرفاتها قلاعاً . . وأخذوا يرمون الفرنسيين بالقذائف والأحجار والطوب وحفن التراب من الأسطح والنوافذ ، ويرشقونهم بالسهام والرماح والنشاب . . وأخذتهم السيوف من كل جانب ، فهوى كثير من فرسانهم عن جيادهم صرعى . . كما أن خيولهم الضخمة لم تتمكن من التجول بين الأزقة والدروب ، فاختل نظامهم ، وازداد موقفهم دقة وخطورة . .

وكانت صيحات الجند والشعب تدوى كالرعد القاصف : « الجهاد . . الجهاد . . إلى المعركة . . النصر لنا . . ويل للمعتدين . . الهزيمة للعدو » فتسرى قشعريرة الخوف فى أوصال الغزاة ..

ويستمر الزحف المقدس فى زئيره المدوى الرهيب: « اقذفوهم بالطوب والحجارة . . ارموهم بالسهام والرماح . . أصلوهم نيراناً حامية . . افتكوا بهم . . عليهم . . عليهم . . »

لقد أدى الشعب واجبه المقدس فى هذا اليوم الأغر جنباً إلى جنب مع القوات المصرية النظامية فى الدفاع عن المدينة ضد أولئك الدخلاء . . فلم يقف جامداً ، ولم يكن بمعزل عما يجرى حوله من أحداث . .

وكان مظهراً جميلا حقاً ذلك التضامن المتين بين أبناء مصر العظيمة من مسلمين وأقباط ، والذى ظهر فى أروع حلله وأبهاها يومذاك .. يوم أن تعانق الهلال والصليب واتحد القرآن والإنجيل .

والواقع أن تضامن القبط مع إخوتهم فى الكفاح إنما يرجع إلى شعورهم الدائم المتوارث بالوطنية ، وإيمانهم بها ، وإخلاصهم لبلادهم .. وولائهم لأولى الأمر فيها .. ثم هم لم ينسوا الأضرار الجسيمة التى لحقتهم من الفرنجة أنفسهم الذين كانوا يغيرون على الديار المصرية من وقت لآخر ، ويعيثون فيها فساداً دون مراعاة لحرمة بيوت الله من مساجد وكنائس .. وهم لم ينسوا أيضاً أن الصليبيين عندما استولوا على بيت المقدس فى بداية حركتهم العدوانية ، منعوا القبط من زيارة الأراضى المقدسة والحج إليها ، فلم يدخلوها حتى استردها منهم صلاح الدين الأيوبى .. وهم لم ينسوا كذلك أنهم كانوا فى نظر الكنيسة الرومانية الكاثوليكية ضالين عن جادة الدين الحقيقى مما جعلهم مكروهين فى الأوساط اللاتينية لأنهم على غير مذهبهم .. كل هذا وذاك خلق بينهم وبين الغزاة هوة سحيقة وسداً منيعاً ..

هكذا هبّ أهالى المنصورة فى وجه العدو كرجل واحد ، تؤازرهم النجدات التى جاءتهم من القرى والمدن المجاورة . وأخذوا يقاتلون بلا كلل أو ملل ،وبلا رفق أو هوادة ، وقد ضحوا بكل شىء فى سبيل حريتهم واستقلالهم ، حتى رأى الغزاة من شجاعتهم وإقدامهم ماراعهم وبلبل أفكارهم .. وقد مات بعض هؤلاء المجاهدين فى أثناء المعركة ، وأطلق عليهم الناس لقب الشهداء بعد أن ضربوا أروع الأمثلة فى التضحية

والكفاح .. « ولاتَحْسَبَنَّ الذينَ قُتِلُوا فِى سَبِيلِ اللهِ أمواتاً بل أحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ » .

وانجلى القتال أخيراً عما لم يجل للصليبيين بخاطر .. فقد تم القضاء على فرقة الفرسان التى كانت تؤلف مقدمة الجيش الفرنسى قضاء مبرماً تقريباً .. وكان فى مقدمة الضحايا روبرت كونت أرتوا شقيق الملك لويس وثلاثمائة من فرسانه .. ووليم حاكم مقاطعة سالسبورى وغالبية رجاله .. وفقد جماعة الداوية حوالى ثلاثمائة من محاربيهم .. وخرج رئيسهم من المعركة بعين واحدة .. ولم يسلم منهم سوى بضعة أشخاص لينعوا إلى بقية رجال الجيش مأساة المنصورة ..

أضحت المنصورة مقبرة لمقدمة الجيش الفرنسى .. ورويت أرضها الطيبة بدمائهم .. وانتشرت أنباء هذا النصر ، ورفعت الأعلام وأقيمت الزينات والأفراح فى كل مكان .. وأرسل القائد المصرى بطاقة فى أجنحة حمامة من حمام الزاجل تزف البشرى إلى العاصمة ، جاء فيها : « لم تمض ساعة وإذا بفلول الفرنج قد ولوا على أعقابهم منهزمين ، وأسود مصر لأكتاف خنازير الفرنج ملتزمين » ، فاستبشر الناس وقويت الروح المعنوية عندهم ..

* * *

وبينما كانت هذه المعركة تجرى حوادثها داخل مدينة المنصورة وبين أزقتها وشوارعها ، نشب قتال آخر فى البقعة الكائنة بين بحر أشموم والمنصورة حيث يوجد المعسكر المصرى .. وكانت هذه المعركة بين القسم

الثانى من الجيش الفرنسى الذى عبر القناة عن طريق المخاضة وعلى رأسه كونت انجو ، وبين القوات المصرية المتحفزة للفتك به .

هاجم المصريون أعداءهم ، ورموهم بالسهام والحراب ، وفتكوا بعدد كبير منهم ، وهرب بعض الفرنج إلى أحد المنازل المهجورة بضواحى المدينة للاحتماء فيه من ضربات المصريين .. لكنهم عادوا فأطبقوا عليهم من كل جانب ، وأصابوا عدداً منهم بجراح بالغة . .

وبينما المعركة تدور رحاها ، أخذ ركن الدين بيبرس قائد الجيش ، درع كونت أرتوا ورداءه ، وقد لوثتهما الدماء ، ورفعهما أمام جنوده قائلا :

— هذا هو عدوكم .. هذا هو عدو الله قد مات . .

فعلا التهليل والتكبير ، وسرت الحماسة بين الجميع ..

وفى تلك الأثناء وصل لويس التاسع وبقية الفرسان إلى ميدان القتال جنوبى بحر أشموم .. ولم يكن الملك على علم بما منيت به الطليعة من هزيمة منكرة .. ولم يكن على علم كذلك بما أصاب شقيقه روبرت .. وتوقف هو وجيشه على تل مرتفع قبالة الضفة الشمالية . وكان غرضه من ذلك استكمال بناء الجسر من الناحية الجنوبية ليعبر المشاة عليه .. ولكن توقفه لم يدم طويلا . . إذ سرعان مانشب قتال بين الفريقين أبدت فيه القوات المصرية مهارة فائقة . . فلم يكن العراك بقوس أو برمح ، إنما تقاتل الفريقان وجهاً لوجه ، حيث التحمت الأجساد واختلطت السيوف وعلا صليلها ، وانتثرت الدماء هنا وهناك . . وأبدى المصريون تفوقاً

على الصليبيين فى فن القتال بالسيف ، وتمكنوا فى آخر الأمر من التغلب عليهم وإلحاق الهزيمة بهم . .

وإزاء هذه الهجمات الشديدة ، توقف الملك عن مواصلة السير نحو المنصورة ، واضطر إلى التراجع ثانية صوب الضفة الجنوبية لبحر أشموم هو ومن تبقى لمن فرسانه على قيد الحياة ، والعساكر المصرية فى أثرهم مكبدة إياهم خسائر جسيمة فى الأرواح والعتاد . . وقد غرق عدد كبير منهم عند عبورهم القناة إلى الضفة الأخرى هرباً من جحيم المعركة .

وكان الحزن الشديد يملأ نفوس مشاة الصليبيين شمالى بحر أشموم وهم يشاهدون إخوانهم على الجانب الآخر يقعون صرعى تحت ضربات المصريين ، ويموتون غرقى فى النهر عند محاولتهم الفرار . ولم يكن بوسعهم تقديم أى عون لهم والجسر لم يتم تشييده بعد .

كانت القوات الصليبية فى مركز حرج وهى تعانى من هجمات فرسان المماليك ومشاتهم الشديدة المتكررة .. وزاد فى خطورة الموقف أن المشاة وحملة القسى الفرنسيين كانوا على الضفة الشمالية لبحر أشموم مع دوق برجنديا ، ولم يكن يمكنهم تقديم أى عون لزملائهم .

وبينما الفرنسيون فى مأزقهم هذا لايجدون منه مخرجاً ، إذ جاء أحد فرسان الداوية الذين نجوا من واقعة المنصورة فأسر إلى لويس بموت أخيه كونت أرتوا . . فبدا عليه التأثر الشديد لفقده حتى دمعت عيناه وغلبه البكاء .

كان الملك لويس وفرسانه على شفا هاوية لحاجته إلى معونة مشاته

ورماة سهامه المقيمين على الضفة المقابلة ، بعد أن مات جميع حملة القسى من الفرسان مع كونت أرتوا داخل المنصورة . وكان من حسن حظه أن أقام الفرنج فى ذلك الحين جسراً من السفن عبر عليه رماة السهام والمشاة لنجدة الملك وجيشه . . ولولا ذلك للحق الملك بأخيه ولأصبح فى خبر كان . . ولكن القدر كان يدخر له ماهو أشد من هذا وأنكى .

وهكذا انتهت معارك يوم الثلاثاء داخل المنصورة وفى ضواحيها ، وقد استمرت منذ الصباح الباكر حتى المساء ، دون أن يتوقف القتال فيها لحظة واحدة . . انتهت بغلبة المصريين واندحار الفرنسيين بعد أن فقدوا زهرة فرسانهم وخيرة رجالهم فى شوارع المدينة وأزقتها بين قتيل وأسير وجريح .. انتهى هذا اليوم بالنسبة للفرنج فى جو مشبع بالأسى والكآبة والأحزان ، أما مصر فقد خرجت مرفوعة الرأس ، مشرقة الجبين ، موفورة الكرامة .. لقد أحيا أبناؤها فى ذلك اليوم مجد العروبة والإسلام من جديد .

وكانت موقعة الثلاثاء بحق « أول النصر ومفتاح الظفر » .

موقعة يوم الجمعة

قضى المصريون ليلتهم فرحين متهللين بعد انتصارهم على الغزاة فى موقعة يوم الثلاثاء . وفى صبيحة اليوم التـــالى عقد الأمير بيبرس قائد الجيش مجلساً من مستشاريه تقرر فيه القيام بهجوم شامل كبير للقضاء على بقية الجيش الصليبي فى يوم الجمعة الحادى عشر من فبراير ، وهو اليوم الذى أحبه المصريون وأحبوا الجهاد فيه مثلما فعل صلاح الدين قاهر الصليبيين .. وقد علم الفرنج بأمر هذا الهجوم من رجالهم وعيونهم الذين كانوا يبثونهم هنا وهناك . .

وبادر كل من الفريقين إلى تنظيم قواته وإعداد العدة لهذا الهجوم المنتظر . . ومن يدرى لعله الهجوم الأخير . . وهكذا بعد أن كان الفرنج هم البادئين بالهجوم فى وقعة المنصورة الأولى ، تغيرت الظروف وأصبحوا فى موقف الدفاع عن أنفسهم ضد الهجوم المصرى فى المعركة الثانية . .

لم يكن لدى ملك الفرنسيين الوقت الكافى للبكاء على موتاه ، فقد كانت الظروف تحتم عليه أن يعد العدة لما قد يجد فى الأيام القليلة المقبلة التى بات من المتوقع أن تكون أياماً قاسية وحاسمة فى نفس الوقت . . لذا أسرع بإعادة تنسيق قواته ، فجعلها فى إحدى عشرة فرقة انتظمت عشر منها على طول الضفة الجنوبية لبحر أشموم فى مواجهة المعسكر المصرى ، بينما كانت الفرقة الحادية عشرة توجد على الضفة المقابلة . . وأمر لويس

فرسانه أن يقاتلوا وهم مترجلون حتى يمكنهم صـــد هجمات المصريين . . ولعله أقدم على ذلك بسبب فناء معظم فرسانه فى الموقعة الأولى . .

وكان موقف الفرنسيين هنالك يكتنفه الدقة والخطورة . . فقد كانت تحوطهم من خلفهم وعلى جانبيهم أنهـار وترع ضيقة سريعة الجريان . . وكان أمامهم المصريون بجحافلهم الجرارة . . فلم يكن لهم من سبيـل إلى الاتصال بمعسكرهم فى الضفة الشمالية لبحر أشموم إلا جسر خشبى صغير . . ثم إن جيشهم ولو أن جناحه الأيسر كانت تحميه بعض الشىء فرقة حملة القسى المرابطة على الضفة الشمالية بقيادة دوق برجنديا ، إلا أن الجنـاح الأيمن كان مكشوفاً تماماً أمام القوات المصرية التى كانت تهـدده بكثرتها وتفوقها فى العدة والعدد . .

وفى الجانب الآخر وضع بيبرس بطل موقعة المنصورة الأولى خطة الهجوم التى تدل على مهارته فى تدبير الخدع والحيل والتكتيكات الحربية الموفقة . . إذ قسم جيشه إلى ثلاثة أقسـام : مقدمة وقلب ومؤخرة . . ففى المقدمة انتظم تجاه الفرنج ما يقرب من أربعة آلاف من فرسان المماليك بكامل عدتهم وسلاحهم ، ومن خلفهم عسكر مشـاتهم . . وفى المؤخرة اصطفت جيوش أخرى هائلة لمساعدة الفرسان والمشاة إذا اقتضت الضرورة ذلك . .

وكان هذا الجيش الذى احتفظت به مصر فى العهـد الأيوبى جيشاً مدرباً أحسن تدريب ، صناعته الحرب والقتال ، كما كان مجهزاً بكل ما أنتجه ذلك العصر من أسلحة ومعدات ، حتى لقد اعتبر من أفضل جيوش العصر الوسيط فى الشرق والغرب إعداداً وقوة وتنظيماً . .

ولما انتهى القائد المصرى من تنظيم قواته وترتيب صفوفها وأماكنها ، تقدم بمفرده على ظهر جواده وسرح البصر فى صفوف الأعداء وفرقهم .. فكان يأمر بزيادة جنده حيث يرى جندهم أكثر عدداً ، وإبقائها كما هى فى الأماكن التى يراهم فيها أقل قوة . .

ولكى تصبح الخطة سديدة محكمة أصدر أوامره إلى العرب وعامة الشعب ، بعبور بحر أشموم وشن الغارات على المعسكر الفرنسى شمالى هذا النهر لعرقلة نشاط فرقة مشاة الصليبيين الموجودة هنالك ، وعدم إتاحة الفرصة لها لمعاونة الفرق الأخرى على الضفة المقابلة .

* * *

« ألاَ إنَّ نَصرَ اللهِ قَرِيبٌ » .

وما إن انتصف نهار يوم الجمعة حتى بدأت المعركة . . فاندفع فرسان المسلمين ومشاتهم بأعدادهم الهائلة وآلاتهم الحربية صوب الفرق الفرنسية من جميع الجهات ، وتنقلت فرسانهم فى ساحة الميدان بنظام دقيق وتشكيلات رائعة . .

وكانت أول فرقة اشتبك معها المصريون هى فرقة شارل كونت انجو . . فاندفع مشاتهم نحو الكونت الذى كان واقفاً على قدميه ، ورموه بالنار الإغريقية ، ثم انقض فرسانهم عليه وأنزلوا به وبرجاله هزيمة شديدة . . إلا أن شارل نفسه تمكن من الفرار بعد أن أصيبت فرقته بضربة قاسية . .

واصطفت إلى جانبها فرقة أخرى بقيادة وليم دى سوناك رئيس جماعة الداوية ، وكان قد دخل المعركة بمن بقى من رجاله على قيد الحياة بعد موقعة الثلاثاء . . ولما كان مدركاً ضعفها ، فقد أقام أمام معسكره حاجزاً من المتاريس . . ولكن هذا لم يجد فتيلا ، فقد أحرقه المصريون بنيرانهم ، وأطبقوا على رماة الفرقة فى شدة وعنف ؛ وسرعان ما قضوا عليهم . . وكان قائدها وليم قد فقد إحدى عينيه فى معركة يوم الثلاثاء ، ثم فقد فى هذه المعركة عينه الثانية . . وفى النهاية سقط قتيلا متأثراً بجراحه . . ولم تقم لفرقته بعد ذلك قائمة . .

أما فرقة جى دى موفوزان فلم يتمكن المصريون من اختراق صفوفها على الرغم من أنهم أصلوا قائدها بنيرانهم التى أخمدت بعد صعوبة كبيرة . .

وتليها فرقة جان دى جوانفيل الصديق الحميم للملك الفرنسى وصاحب المذكرات الفريدة فى بابها عن تاريخ حياة مليكه ومآسى الهزيمة التى فرضها المصريون على الفرنج . . وفرقة جوانفيل هـذه لم تشترك فى القتال اشتراكاً جدياً . . ولم يهاجمها المصريون لأنها لم تكن فى مواجهتهم مباشرة ، إذ كانت خلف فرقة أمير الأراضى الواطئة . .

وقد شن فرسان المصريين ومشاتهم هجوماً شديداً على فرقة وليم أمير الأراضى الواطئة ، وكادوا يلحقون بها الهزيمة لولا أن أسرع لمساعدتها بعض الفرنج من الفرق الأخرى . .

أما فرقة ألفونس كونت بواتييه أحد أشقاء لويس فكانت تتكون من المشاة إلا الكونت نفسه الذى كان معتلياً جواده . . وقد فتك بها

المصريون أيضاً ، وتمكن رئيسها من الهرب والعودة سالماً إلى المعسكر الفرنسى . .

والفرقة التالية لفرقة الكونت دى بواتييه كان على رأسها جوسران دى برانسيون وتتكون من المشاة . . وقد نفذت القوات المصرية بين صفوفها ، وأوشكت أن تبيدها عن آخرها لولا أن أدركها رجال الفرقة التى كانت تقيم على الضفة الشمالية لبحر أشموم الذين أخذوا فى تصويب سهامهم إلى المصريين عبر القناة ، فأنقذوا بعض أفرادها ، ولو أن دى برانسيون نفسه سقط قتيلا هو وجانب من رجاله .

وهكذا ظلت القوات المصرية توجه ضرباتها إلى فرق الصليبيين ، وتقذفهم بنيرانها حتى فدحت خسائر العدو فى الرجال والسلاح . .

وفى تلك الأثناء كان عامة الشعب والعرب يناوشون مشاة الفرنسيين المقيمين على الضفة الشمالية لقناة أشموم ، ويقذفونهم بكل ما يصل إلى أيديهم ، ليحولوا بينهم وبين مد يد العون إلى الفرق الأخرى على الشاطئ المقابل . . فأتاحوا بذلك الفرصة للجيش المصرى ليجول ويصول بين فرق الصليبيين المصطفة أمامه . .

وكانت معركة يوم الجمعة هذه من أشد المعارك وأعنفها فى تاريخ الحركة الصليبية وفى تاريخ كفاح العروبة ضد الاستعمار . . وهى تعتبر مثلا حياً على براعة المصريين فى إحكام الخطط الحربية وتنفيذها . . ففيها تغلبت قواتهم على معظم الفرق التى كان يتكون منها جيش الفرنجة . . وفيها فقد الفرنسيون عدداً لا يستهان به من فرسانهم ومشاتهم ، وحطم

المصريون معظم معداتهم وعتادهم ، مما أضعف قواهم وأسهم فى التعجيل بنهايتهم . . وهى نهاية خزى وعار سجلها التاريخ على صفحاته . .

كان هذا نصراً جديداً يضاف إلى سلسلة انتصارات المصريين . . وهزيمة أخرى تضاف إلى هزائم الفرنج المعتدين . .

الوباء يتفشى فى المعسكر الفرنسى

بعد هاتين المعركتين توقف المصريون عن القتال تاركين الفرنسيين فى أخطر المواقف وأحرجها . . وأدرك الفرنج أن معاودة الهجوم على المنصورة تكاد تكون مستحيلة ، وأن بقاءهم فى أماكنهم معناه هلاك محقق لهم . . وكان كل يوم يمر عليهم وهم فى هذه الحالة يزيد مركزهم دقة وصعوبة . . لقد بلغوا درجة من الضعف لم تمكنهم من مواصلة القتال . .

وما هى إلا أيام بعد معارك اليومين المذكورين حتى تفشى الوباء فى معسكرهم . . ولم يجدوا وسيلة للتخلص من جثث موتاهم إلا أن يلقوها فى النيل والقناة . . غير أن هذه الجثث بدأت تطفو على وجه الماء ، كما تراكمت على الجسر الخشبى الذى شيده الفرنسيون على بحر أشموم ، وبلغ من كثرتها أنها غطت سطحه . . ولم يسع الملك المسكين فى آخر الأمر إلا أن يستخدم عدداً من رجاله لانتشال الجثث من النهر ودفنها فى باطن الأرض . .

وبلغ من شدة الوباء أن أصيب به معظم رجال الجيش ، حتى أن لويس نفسه لم يسلم من المرض الذى أدناه من الموت . .

وأخذ حالهم يزداد سوءاً ، إذ يبست سيقانهم حتى لم يعد يظهر منها سوى عظام بارزة . . وظهرت على أرجلهم بقع سوداء فى لون التراب . . وأصاب العفن مواضع شتى من أجسامهم . . وكان إذا أصيب أى فرد بنزيف فى أنفه دل ذلك على دنو أجله . .

وكان يموت كل يوم ما بين عشرين وثلاثين محارباً . . وصار كل فرد يترقب هذا المصير الرهيب بين لحظة وأخرى . . ولم يكن يوجد فى معسكرهم من لا يبكى موت زميل أو قريب له . . حتى دوابهم فقد لحقها الداء ونفق معظمها !

توران شاه يصل إلى المنصورة

وفى تلك الأثناء التى رجحت فيها كفة النصر نحو الجانب المصرى ، بينما كان الجيش الفرنسى يعانى الأمرين من نقصان فى العدد إلى تفشى الأوبئة والأمراض فى معسكره . . قدم المعظم توران شاه بن السلطان الراحل الصالح أيوب . . وكان وصوله إلى المنصورة فى الخامس والعشرين من فبراير ، أى فى اليوم الرابع عشر بعد موقعة الجمعة الشهيرة .

وفى الحال نودى به سلطاناً على مصر ، وأعلن رسمياً وفاة الملك الصالح نجم الدين أيوب . . وقد ضاعف مقدمه من شجاعة المصريين وحماستهم ، والتفوا حوله للجهاد ضد العدو ودفعه عن البلاد . .

ودبر توران شاه بمجرد وصوله خطة يسدد بها الضربة القاضية إلى الجيش الفرنسى . . إذ لجأ إلى نفس الحيلة التى لجأ إليها المصريون فى عهد جده الملك الكامل محمد عند ما نزلت فى نفس المكان جيوش الصليبيين بقيادة جان دى برين . .

لقد كان الاتصال حتى ذلك الوقت بين دمياط والمعسكر الفرنجى جنوبى بحر أشموم غير مقطوع ، إذ كانت السفن الفرنسية تجلب المؤن والإمدادات من دمياط ، إلى المعسكر عن طريق النيل . . ومن ثم أمر السلطان الجديد بصنع عدة مراكب حملت مفككة على الجمال عند سمنود ، ونقلت عن طريق البر إلى بحر المحلة . . وهناك أعيد تركيبها

وأنزلت إلى بحر المحلة خلف المعسكر الفرنسى بعد أن تم تزويدها بالمحاربين . . وكان الغرض من ذلك عرقلة الغزاة بأسطولهم . .

وبحر المحلة هذا الذى تستر فيه أسطول المصريين لاصطياد سفن العدو ، يخرج من فرع مليج عند قرية ضيا الكوم بالقرب من طنطا ويمر بقرية الهيثم ثم ببلقينة فالمحلة الكبرى إلى أن يتصل بالنيل عند شارمساح ..

وقد نجح المصريون فى خطتهم نجاحاً باهراً . . ولا غرو ، فقد كان لهذه الخطة الفضـــل فيما نزل بالصليبيين المقيمين جنوبى بحر أشموم من كوارث ومحن من الآن فصاعداً . .

لقد حالت هذه السفن بين مراكب الفرنج الآتية من دمياط وبين الوصول إلى معسكرهم عند المنصورة . فقد كمنت فى مخبأ متربصة للقافلة التى تحمل المؤن للصليبيين عبر النهر . . وحدث أن عدة من مراكبهم كانت قادمة من دمياط ، فلما اقتربت من فم بحر المحلة، باغتتها المراكب المصرية المستترة فى هذا البحر ، بينما أطبق عليها أسطول المصريين من جهة المنصورة ، وانهزم أسطول الفرنج فى هذه المعركة ، وأخذ المصريون اثنتين وخمسين سفينة من سفنه ، واستولوا على كل ما فيها من زاد ومعدات . كما ذهب قرابة ألف فرنسى بين قتيل وأسير ، واقتيد الأسرى على الجمال إلى القاهرة . . وكان دخولهم فيها يوماً مشهوداً حيث زج بهم فى غياهب السجون ، وعلقت رءوس قتلاهم على أبواب العاصمة . . فكان هذا مما ضاعف سرور المصريين وملأهم ثقة واعتزازاً . .

واشتد القتال بين الفريقين . . ففى السابع من شهر مارس نشبت

معركة بحرية ثانية استولى فيها المصريون على سبع سفن للعدو ، وتمكن من كان فيها من الهرب والنجاة بأنفسهم . . وفى منتصف هذا الشهر اشتبكت السفن المصرية والفرنسية فى معركة أخرى انتهت بأخذ المصريين اثنتين وثلاثين من سفن الأعداء . .

وهكذا تعددت المعارك البحرية بين الأسطولين المصرى والفرنسى التى انتهت باستيلاء المصريين على كثير من سفن الأعداء . . وكانت كل سفينة تذهب لإحضار المؤن للفرنج من دمياط لا تعود أبداً . . ولم يكن الفرنج بدمياط يتصورون أن يحدث هذا حتى أفلتت إحدى سفنهم من رقابة الأسطول المصرى ووصلت إليهم وأخبرتهم بتلك الخطة التى دبرها المصريون لمنع الأزواد من الوصول إلى الفرنسيين . .

وكانت النتيجة أن نفدت مئونة الفرنج وهددت المجاعة معسكرهم جنوبى بحر أشموم ، ودب دبيب اليأس فى نفوسهم بعد أن أفلح المصريون فى قطع الطريق عليهم ومنع الأزواد من الوصول إليهم . . وصاروا محصورين بين شقى الرحى . . وارتفعت أسعار الحاجات ارتفاعاً فاحشاً ، حتى أنهم باتوا يأكلون بنهم زائد لحوم الخيل والبغال التى كانت معهم . . وعندما أتوا عليها أكلوا من جثث الحيوانات التى ماتت من الجوع أو المرض . . واتخذوا من الحشائش والأعشاب طعاماً لهم .

وفتّ ذلك كله فى عضد الفرنسيين ، فطلب مليكهم فتح باب المفاوضات مع المصريين ، وأرسل يطلب الصلح وإيقاف القتال ، وهو يعلم جيداً الشدائد التى تقاسيها قواته . وكان يمثل الفرنج أحد فرسانهم ويسمى جوفروا دى سارجين ، وينوب عن مصر قاضى القضـــاة

بدر الدين السنجارى .. وقد عرض رسول لويس شروطا لم تكن معقولة وهو فى مثل موقفه ، ولا مناسبة للظروف الصعبة المحيطة بجيشه . إذ اشترط فى نظير إعادته دمياط للمصريين ومغادرته للبلاد ، أن يتنازل لهم السلطان عن بعض المدن الساحلية فى فلسطين . وقد قوبلت عروض الملك الفرنسى بالرفض التام من جانب المسلمين الذين كانوا يعلمون حق العلم ما يكتنف جيوش الأعداء من الضائقات . والذين كانوا فى موقف يسمح لهم بإملاء إرادتهم على الفرنج .. وهكذا انقطعت المفاوضات دون الوصول إلى أية نتيجة .

مذبحة فارسكور

تلك هى الحال التى أصبح عليها الفرنسيون فى الوقت الذى رفضت فيه مصر شروطهم للصلح ومغادرة البلاد : وباء ينخر فى عظامهم ، ومجاعة تفتك بهم أحياء ، ونقص متزايد فى أعدادهم وعُدَدهم .. وشعب واقف لهم بالمرصاد .. كل ذلك خلق فيهم اضطراباً نفسياً شديداً ، وأفقدهم الكثير من الروح المعنوية وهى أهم سلاح للمحارب ، مما سبب تثبيطاً لهممهم وخللا فى صفوفهم .

كان أولئك القوم فى موقف لا يحسدون عليه ، وأخذت حالتهم تزداد سوءاً كلما تقدمت بهم الأيام . ولو غالبوا كل تلك الكوارث وعزموا على معاودة القتال ، لتحطمت عزيمتهم أمام جيش قوى بوسعه القضاء عليهم ، وشعب مؤمن مصمم على النضال إلى النهاية . . ولم يكن أمامهم إلا أحد أمرين كلاهما مر : إما أن يبقوا فى مراكزهم التى هم فيها جنوبى بحر أشموم وفى هذا نهايتهم . . وإما أن يعودوا أدراجهم من حيث أتوا علهم ينجون بأنفسهم مما نزل بهم .

وفى الحال عقد لويس مجلساً من كبار رجاله للتداول فى الأمر .. وبدأ كونت بواتييه الحديث قائلا :

ـــ لقد أطبق المصريون علينا من كل جانب ، بعد أن أفلحوا فى استدراجنا إلى داخل البلاد ليسهل عليهم الفتك بنا .

وأضاف جان دى جوانفيل :

— وها نحن أولاء يامولاى نجنى ثمار تهورنا فى بلاد غريبة عنا . . فالبحر أمامنا .. وجيش المصريين من خلفنا .. والهلاك مصيرنا .. ولقد عمت المجاعة معسكرنا ، وتفشى الوباء بين رجالنا .. والموت يطل بشبحه علينا .

ثم أخذ يوجه الحديث إلى الحاضرين :

— أيها السادة .. إننى أخشى سوء العاقبة وشر المصير .. وخير لنا أن نتراجع من حيث أتينا بمن تبقى من رجالنا ، بدلا من أن نفنى جميعاً على ضفاف النيل وتحت شمسه المحرقة .

ولكن شارل كونت أنجو ، الذى لم تفارقه أطماعه ، قاطعه قائلا :

— لا .. لن نتراجع .. بل أرى البقاء فى مراكزنا ومواصلة القتال.

ولم يتمالك جوانفيل نفسه فقال فى حدة وغضب :

— ماهذا الذى تقوله ياشارل ؟ إنها الحماقة بعينها ! إنه لاقِبلَ لنا بملاقاة أهل هذه البلاد وجنودها ، الذين رشقونا بأسنة رماحهم ، ورمونا بسهامهم ، وأعملوا فينا سيوفهم ، وأصلونا نيرانهم ونفطهم . أراك ياصديقى الكونت تركب رأسك فى قضية خاسرة ، وأنت ترى بعينيك خيرة رجالنا وهم يسقطون صرعى تحت ضربات المصريين .. يجب أن نبادر بالانسحاب قبل أن يستفحل الأمر ويصبح من المتعذر علاج الموقف .

كان لويس يستمع إلى مايدور حوله دون أن ينبس بكلمة واحدة .. وفى آخر الأمر أنهى الاجتماع معلناً قراره بالانسحاب إلى مدينة دمياط عساه يستطيع إنقاذ ما يمكن إنقاذه فى هذه المحنة . وما كانوا يدرون

أنهم سوف يلاقون فى هذا الانسحاب أكبر كارثة منيت بها حملة فى تاريخ الحركة الصليبية كلها .

لقد جاء هذا القرار متأخراً جداً .

* * *

أصدر الملك الفرنسى أوامره إلى الفرنسيين الموجودين جنوبى بحر أشموم بالانتقال إلى المعسكر القائم على الضفة المقابلة . وحينئذ يمكن القوات الصليبية متجمعة التراجع إلى دمياط فى السفن عن طريق النيل وفى البر بمحاذاة الشاطئ . .

وكانت مهمة الانسحاب من الضفة الجنوبيـة إلى الضفة الأخرى صعبة دقيقة بسبب الهجمات الشديدة التى قامت بها القوات المصرية يشد أزرها الشعب الباسـل .

وبعد أن تم الانسحاب إلى الضفة الشمالية لبحر أشموم ، أعد الفرنج العدة للتراجع العام إلى دمياط والاحتماء بها ضد المصريين . ففى مستهل أبريل بدأوا فى جمع مرضاهم وجرحاهم على الشاطئ لنقلهم إلى دمياط فى السفن الباقية لهم بعد المعارك البحرية التى اشتبكوا فيها مع الأسـطول المصرى . .

وفى مسـاء الثلاثاء الخامس من نفس الشهر ، وكان الليل قد أرخى سدوله وساد المنطقة سكون موحش ، بدأت عملية التراجع . . ولم تـكن هذه العملية بالأمر الهين السهل .

تحرك الصليبيون من مشاة وفرسان متجهين نحو الشمال إلى قاعدتهم فى دمياط .. فسار القادرون منهم بمحاذاة الشاطئ الأيمن للفرع الشرقى للنيل ، بينما انحدرت سفنهم قبالتهم فى النيل تقل المرضى والجرحى والعاجزين . وتركوا وراءهم أكواماً مكدسة من الخيام والأسلحة والأطعمة غنيمة باردة للقوات المصرية .

كانوا فى عجلة خشية أن تقتفى قوات بيبرس آثارهم وتجهز عليهم ، فنسوا تحطيم الجسر الذى عبروا به بحر أشموم عند التراجع . وهكذا قدموا للمصريين ممراً يجتازونه فى أعقابهم ، ويقضون على البقية الباقية منهم .

وقد كان . فما إن أبصرت القوات المصرية الظافرة الفرنج يتحركون شمالا حتى عبرت الجسر إلى الضفة الشمالية لبحر أشموم .. وسارت فى أعقاب الجيش المنسحب مكبدة إياه خسائر فادحة فى الأرواح .

وهكذا استمر القتال بين الطرفين . وطالت المطاردة طوال ليل الثلاثاء إلى صباح الأربعاء حتى وصلا إلى قرية فارسكور .

هناك كانت خاتمة المطاف والكارثة الأخيرة . فى هذه البلدة وقعت ملحمة دموية منى فيها الفرنسيون بضربة قاسية .. إذ انهالت عليهم القوات المصرية وتعقبت آثارهم ، وألحت فى مضايقتهم حتى التفت على صفوفهم وأطبقت عليهم .. ثم أعملت فيهم سيوفها وأخذت ترشقهم بسهامها ورماحها .

وقد كان يوماً مشهوداً من أيام المقاومة ضد الحركة الصليبية ، خسر فيه الفرنج خسارة كبيرة فى الأرواح بلغت بضعة آلاف .. كما أسر عدد لايستهان به من مشاتهم وفرسانهم وصناعهم . هذا عدا ماغنمه المسلمون من الذخيرة والخيول والعتاد .. ولم يستشهد من القوات الإسلامية سوى مائة بعد أن أبلوا أحسن بلاء .

لويس يقع فى الأسر

وإزاء هذه الكارثة التى حلت بالجيش الفرنسى تخلف لويس عن فرقته بعد أن هلك معظم رجالها ، وانضم إلى مؤخرة الجيش الهارب .. وواصل سيره ممتطياً جواداً صغيراً حتى بلغ هو ومن معه قرية تدعى منية أبى عبد الله ، تقع على الشاطئ الشرقى لفرع دمياط فيما بين شارمساح وفارسكور ، وهى التى تعرف اليوم باسم ميت الخولى عبد الله ..

قرية صغيرة لها شأن كبير فى تاريخ هذه الحملة ..

وعبثاً حاولت المؤخرة الدفاع عن الملك ضد المصريين الذين أحاطوا به من كل جانب .. وبلغ الإعياء به مبلغاً شديداً ، حتى أنه بات من المستحيل مواصلة الهرب بعد ذلك .. فحمله من معه إلى منزل بهذه الجهة ، وهو فى شبه غيبوبة ، وأحاطوا بالمنزل للدفاع عنه ضد ضربات المصريين ..

وعند ما ثاب لويس إلى رشده أوفد أحد كبار قواده إلى المصريين فى طلب الصلح وإيقاف القتال مقابل إخلاء دمياط والموافقة على عروضهم التى يتقدمون بها .. ولكن مصر رفضت الدخول معهم فى مفاوضات والنصر الأخير تلوح بوادره ..

وازداد الضغط على لويس ، فلم تجد البقايا الهزيلة من الجيش الفرنسى بداً من التسليم .. فرفع الجميع راية الاستسلام فى يوم الأربعاء السادس



لويس التاسع يقع أسيرا فى قبضة المصريين

من إبريل ، رغبة منهم فى إنقاذ حياة مليكهم ، وهرباً من البلايا المتلاحقة التى ألمت بهم . .

وفى الحال أحدق المصريون بالملك الفرنسى ومن معه من الفرسان ، فطلب منهم الأمان . . فحضر إليه أحد الطواشى ويدعى جمال الدين محسن الصالحى ، وأمنه على حياته . . لكن بعض الفرنج الذين كانوا معه عز عليهم أن يروه أسيراً مكبلا ، وأرادوا تخليصه منهم ، فأحاط بهم

المسلمون ، واشتدوا فى قتالهم حتى أبادوهم عن آخرهم ، ثم ألقوا القبض على لويس واقتادوه أسيراً . .

وأما الفرنسيون الذين تراجعوا فى السفن عن طريق النيل ، فلم يكن مصيرهم بأحسن من أولئك الذين هربوا عن طريق البر . . إذ كانت السفن والقوات المصرية متربصة لهم ، حتى أنه لم تفلت سـفينة فرنسية واحدة من رقابتها اليقظة . . وأخذت البحرية المصرية تمطر الأعداء وابلا من السهام والرماح ، كما رمتهم بالنيران الإغريقية . . ولم ينج أحد ممن كان فى سفنهم ، ووقعوا جميعاً بين قتيل وأسير وجريح . . والسفينة الوحيدة التى تمكنت من الإفلات من بين سفن المصريين ووصلت سالمة إلى دمياط هى تلك التى كان على ظهرها القاصد الرسولى للحملة . . وصلت لتروى ما نزل بالجيش الفرنسى المقهور من محن وويلات . .

* * *

كانت مارجريت منذ غادر زوجها دمياط حتى هـذه اللحظة تتلقى اليسير من الأخبار عنه . . وكانت فى شغف لسماع أنباء جديدة عن رجلها عند وصول القاصد الرسولى . . ومن ملامح القاصد بدا واضحاً أن الخطب جسيم . . وكانت كلماته لها تبعث على الشجن . . أخذ يقص عليها ما حل بلويس ورجاله فى المنصورة وأثناء الارتداد ، إلى أن انتهى الأمر بوقوعه أسيراً فى قبضة المصريين . . فلم تتمالك نفسها واغرورقت عيناها بالدموع . . وظلت طوال الليل تبكى حظها العـاثر وزوجها الأسير . . ولكن ما فائدة الدموع وقد وقع الخطب . . وكان بودها ، بل كانت تتمنى ، أن تلقى بنفسها بين أيدى المصريين لتقع أسـيرة بجوار زوجها

ولتشاركه محنته وتخفف آلامه .. ولكنها تذكرت الجنين الذى يلعب فى أحشائها وقد قاربت ساعة الوضع .. إذ لم تمض أيام حتى جاءت بمولودها يوحنا الذى اشتهر باسم يوحنا الحزين لولادته فى مثل هذا الظرف العصيب ..

وشاء سوء الطالع أن يقرر بحارة الحملة الذين بقوا بدمياط مع الملكة لحراستها عند ما تقدم الجيش الفرنسى جنوباً صوب العاصمة، شاء سوء الطالع أن يقرر هؤلاء البحارة يوم مجيء المولود الإضراب طالبين العودة إلى بلادهم، متعللين بنفاد مؤنهم .. ولكن الواقع كان خلاف ذلك .. فهم كانوا يخشون أن يحل بهم من الكوارث ما حل برجال الحملة وقد أتتهم أنباؤها .. ولم تجد الملكة بداً من العمل على إقناعهم بالعدول عن مغادرة دمياط فى هذه الآونة الحرجة .. وقامت بمدهم بالمؤن من نفقتها الخاصة، رغم ما تعلم عن جشعهم وتغلب الصفة التجارية عليهم .. وذلك كان شعور الملكة نحو زوجها الذى شاركته أقسى أيامه .. فقد كان بوسعها البقاء فى فرنسا لتنوب عنه فى حكم البلاد وتتولى أعمال السلطنة .. ولكنها آثرت أن تبقى إلى جانبه أثناء هذه المحاولة، وأن تشاركه حلوها ومرها .. وقد دلت بتصرفها الأخير مع هؤلاء الرجال على بعد نظرها .. فهى تعلم جيداً أنه لو وقعت دمياط فى قبضة المصريين والملك لا يزال فى الأسر، فهو هالك لا محالة ..

* * *

تلك هى قصة الملكة مارجريت فى دمياط، أما زوجها الأسير ورجاله فقد نقلهم المصريون إلى المنصورة .. فأنزلوا الملك لويس فى سفينة

كبيرة ، وأحدقت به السفن المصرية التى كانت تقدر بمائتى قطعة ، وهى تدق الطبول وتنفخ فى الأبواق ابتهاجاً بهذا النصر .. بينما قيد باقى الأسرى بالحبال واقتادهم الغلمان بأيديهم وهم فى نشوة وابتهاج .. وكانت القوات المصرية المظفرة تسير بمحاذاة الشاطئ الشرقى لفرع دمياط .. وفى الجانب الغربى كان عامة الشعب وأهل البدو يرقصون على خيولهم فى زهو حقيق وفرح بالغ .. وهكذا واصل موكب الأسرى السير حتى بلغ مدينة المنصورة ..

وفى الحال اعتقلت السلطات المصرية لويس التاسع وشقيقيه كونت انجو وكونت بواتييه فى دار القاضى فخر الدين بن لقمان بجوار جامع الشيخ الموافى القائم فى وسط المدينة . وهذه الدار لاتزال معروفة بالمنصورة ، وما زالت آثارها شاخصة حتى يومنا هذا تروى قصص البطولة والكفاح .. وهنالك قيد ملك الفرنسيين بالسلاسل ووضع تحت حراسة الطواشى « صبيح المعظمى » الشديدة .. وصبيح هذا من أتباع المعظم توران شاه الذين جلبهم معه من حصن كيفا ، وأنعم عليه بالاقطاعات الكبيرة والأموال الوفيرة ..

وكانت الحجرة التى اعتقل فيها لويس تقع فى الطابق الأرضى من الدار ، وهى مظلمة ، متوسطة الحجم لا يزيد اتساعها على أربعة أمتار مربعة ، وجدرانها مبنية من اللبن الأسود ، ويصلها بالشارع باب واحد .

كان بوسع المصريين الانتقام من أسيرهم لما اقترفه من آثام فى حق بلادهم .. ولكنهم مع ذلك أكرموه ، وأقاموا عنده من يقوم بخدمته ، ورتبوا له كل ما يحتاج إليه من مأكل ومشرب . إذ كان من جميل

عادتهم أن الأسير إذا أكل أو شرب من مال من أسره ، أصبح فى مأمن من أن يصيبه أذى أو مكروه . .

وذات يوم بعث توران شاه إلى لويس وإلى كبار الفرنج الذين فى أسره خلعاً نفيسة ، كما دعاهم إلى حضور حفلة كبيرة أقامها ابتهاجاً بالنصر ولكن الملك الأسير اعتذر من عدم قبول الخلعة وحضور المأدبة خشية أن تمتهن كرامته على مرأى من الجميع . .

ولقد أشاد أحد المحاربين الفرنسيين وهو جوانفيل الذى اشترك فى الحملة وكتب عنها ، بمـــا كانت تنطوى عليه نفوس المصريين من نبل أصيل ، وكرم فى الأخلاق ، وحسن فى المعاملة . . فمن مظاهر الشفقة فى معاملتهم لأسراهم من الفرنج ، ما حدث لجوانفيل نفسه عند ماوقع أسيراً فى قبضتهم . . فقد كان على ظهر سفينته متخذاً طريقه إلى دمياط خلال التراجع ، عند ما هبت عاصفة شديدة قذفت به إلى الماء قريباً من إحدى قطع الأسطول المصرى ، وأيقن أنه هالك لا محالة . . ولكن عنـد ما شاهده المصريون الذين كانوا على ظهر سفينتهم ، ألقوا إليه حبلا ربط نفسه فيه وانتشلوه وكان قد أوشك على الغرق ، ولم يكتفوا بذلك ، بل أحسنوا معاملته وضمدوا له جراحه . .

كانت هذه هى رحمة القوىّ الغالب ، وعفو المقتدر المتسامح . . وكانت هذه طبيعة فيهم . . وتروى كتب التاريخ الشيء الكثير عن ذلك . . ولعـل لويس ورجاله قد تذكروا فى فترة الأسر البطل العربى صلاح الدين ، ذلك الرجل الطيب الذى رأى أسلافهم من كرمه ونبل أخلاقه ما رفعه فى أعينهم وأجبرهم على احترامه ، والذى أعطى أعداءه

من الفرنج دروساً فى الشهامة والشرف والمروءة .. فعند ما طرد صلاح الدين الصليبيين من بيت المقدس ، افتدى بعض أسراهم من ماله الخاص ، وأطلق سراحهم ، وسمح لهم بمغادرة المدينة بما يحملونه من مال ومتاع بعد أن ضمن لهم سلامة الرحيل .. وكان يأمر رجاله بمعالجة مرضى أعدائه ، وإسعاف جرحاهم ، والعناية بأسراهم .. وفى ذات يوم أخلى صلاح الدين سبيل إحدى أسيراته هى وطفلها ، فتوجهت إلى مدينة طرابلس وكانت إمارة فرنجية ، ولكن ملكها الفرنجى لم يحرمها من كرم الضيافة فحسب ، بل سلب مالها وأغلق أبواب المدينة فى وجهها ، حتى بلغ بها اليأس أن ألقت بابنها الصغير فى اليم وهى تلعن بنى جنسها الذين رفضوا مساعدتها .

ولم ينس الملك الأسير كذلك قصة الطفل الفرنجى الرضيع الذى أخذه العرب ذات ليلة من أعدائهم خلال الحملة الصليبية الثالثة ، وعندما اكتشفت أمه ذلك جن جنونها وأشار عليها كبار قومها بالتوجه إلى صلاح الدين ، ورجائه فى أن يعطيها طفلها لما عرف عنه من العطف والكرم . فذهبت إليه وروت له قصتها ، فتأثر حتى دمعت عيناه ، وأمر رجاله بإحضار الطفل ، فوجدوه قد بيع فى السوق . فارتده وأمر بدفع ثمنه إلى المشترى وأخذه منه ، وانتظر إلى أن أحضروه له وسلمه إلى أمه ، ولم يكتف بذلك ، بل كلف رجاله بحملها هى ورضيعها على فرس إلى معسكر الأعداء .

ذكر لويس كل ذلك وهو يعود بذاكرته إلى الوراء .

حديث ذو شجون

أخذ لويس يسترجع وهو فى محبسه الضيق ذكريات الماضى القريب مع أخويه، وقد قيدت أيديهم وأرجلهم بالأغلال.. ذكريات مريرة أليمة أخذ يستعيدها فى مخيلته وكأنها شريط سينمائى لمأساة تتتابع صورها وتتلاحق مناظرها..

جلس الإخوة الثلاثة يتحدثون والحزن يشملهم.. وقال لويس وهو فى شبه غفوة وقد علته كآبة واصفر لونه :

— آه .. لم نحسب لمقاومة جيش مصر وشعبها حساباً .. وظننا أن البلاد ستقع لقمة سائغة فى أفواهنا .. وهانحن أولاء الآن نجنى ثمار فعلتنا هذه .. ثماراً مرة المذاق..

فيرد عليه كونت أنجو متحسراً :

— نعم ياأخى .. لقد أسأنا التقدير .. ولم نحسب أننا سنواجه رجالا مسلحين بالإيمان والعزم والإصرار على سحقنا وطردنا شر طردة..

ويضيف شقيقه الثانى كونت بواتييه قائلا :

— ليست هذه هى الهزيمة الأولى التى تنزل بنا.. لقد تلقى أجدادنا فى حملة سابقة، وعلى أبواب هذه المدينة نفسها، لطمات شديدة من أهلها، وصفعات قوية من جيشها .. ولكننا لم نعتبر ولم نتعظ..

ويستطرد لويس وكأنه يعاود خياله :

— نعم . . نعم . . هذه هي إرادة الله التي لا مفر منها . وها نحن أولاء الآن نكفر عن آثامنا وخطايانا .

وإلى هنا ينتهي الحديث ويسود المكان سكون رهيب ...

دمشق تحتفل بالنصر

مضت أيام على وقوع لويس ورجاله فى الأسر كانت البلاد خلالها فى أفراح مستمرة .. ورحل الملك المعظم توران شاه والقوات المصرية من المنصورة إلى فارسكور استعداداً لاسترداد دمياط .. وهناك أقام المعظم سرادقه ، وشيد إلى جانبه برجاً خشبياً كان يصعد إليه ليشرف على المعسكر والقرية كلها ..

وكان النصر الذى أحرزته مصر باهراً مجيداً .. فما إن نزل توران شاه بسرادقه فى فارسكور بعد أن تم إخضاع الجيش المغير ، وكان ذلك فى أخريات شهر أبريل ، حتى بعث بالبشرى إلى بلاد الشام .. فأوفد رسولا يحمل كتاباً يتضمن النبأ السعيد إلى نائبه بدمشق الأمير جمال الدين ابن يغمور .

وفى حفل كبير أقيم بدمشق حضره ابن يغمور ، تلا الرسول على الحاضرين كتاب السلطان :

« الحمد لله الذى أذهب عنا الحزن ، وما النصر إلا من عند الله ، ويَومئذ يفرحُ المؤمنون بنصر اللهِ ، ينصُرُ من يشاء وهو العزيزُ الرحيمُ .. وأمّا بنعمةِ ربِّك فحدِّثْ ، وإن تعُدُّوا نعْمةَ اللهِ لا تُحْصُوها .. نبشر المجلس السامى الجمالى ، بل نبشر المسلمين كافة ، بما منّ الله به على المسلمين من الظفر بعدو الدين .. فإنه كان قد استفحل أمره ، واستحكم شره ، ويئس العباد من البلاد ، والأهل والأولاد ، فنودوا لا تيئسوا من روح الله .

ولما كان يوم الثلاثاء مستهل السنة المباركة ، تمَّمَ الله على الإسلام بركتها. فتحنا الخزائن ، وبذلنا الأموال . وفرقنا السلاح ، وجمعنا العربان والمتطوعة ، وخلقاً لا يعلمهم إلا الله .. فجاءوا من كل فج عميق ومكان سحيق .. فلما رأى العدو ذلك ، أرسل يطلب الصلح فأبينا .. فلما كانت ليلة الأربعاء تركوا خيامهم وأموالهم وأثقالهم ، وقصدوا دمياط هاربين ، فسرنا فى آثارهم طالبين . وما زال السيف يعمل فى أدبارهم عامة الليل ، وقد حل بهم الخزى والويل . فلما أصبحنا يوم الأربعاء ، قتلنا منهم ثلاثين ألفاً ، غير من ألقى بنفسه فى اللجج ، وأما الأسرى فحدث عن البحر ولا حرج . . والتجأ الفرنسيس إلى المنية وطلب الأمان فأمناه وأخذناه وأكرمناه » .

فصفق الحاضرون طويلا ، وارتفعت زغاريد النساء ، وعلا التهليل والتكبير حمداً لله وشكراً .

ثم سلم الرسول لابن يغمور غطاء الرأس الذى كان يلبسه الملك لويس ، وكان قد سقط منه فى أثناء فراره قبل وقوعه فى الأسر .. وهو مصنوع من الصوف ، قرمزى اللون ، مزين بالفراء الجميلة . فلبسه الأمير فى الحفل .. وبلغ من روعة الموقف أن ارتجل أحد الشعراء هذين البيتين.

إن غفارة الفرنسيس التى جاءت ... فهى حقاً لسيد الأمراء (١)
كبياض القرطاس فى اللون لكن ... صبغتها سيوفنا بالدماء

وقال آخر مخاطبا الأمير ابن يغمور :

ياواحد العصر الذى لم يزل ... يجوز فى نيل المعالى المدى
لازلت فى عز وفى رفعة ... تلبس أسلاب ملوك العدا

(١) هكذا ورد فى ذيل الروضتين،وهو مكسور ولفظة « التى » زائدة .

نهاية طاغيـــة

فى هذا الوقت الذى كان فيه لويس وباقى الفرنج فى ربقة الأسر وفى هذا الوقت الذى كانت فيه العروبة تقيم الأفراح ابتهاجاً بالنصر.. وقع حادث له مغزاه ، فانقلبت الأمور رأساً على عقب .

كان الحديث يدور فى بادئ الأمر همساً داخل المعسكر المصرى بفارسكور حول تصرفات الملك المعظم توران شاه ، ولكنه سرعان ما أصبح ثورة تعتمل فى نفوس الأمراء والجنــــد وعامة الشعب على السواء ..

قالت شجرة الدر مخاطبة الأمير بيبرس قائد الجيش ، وفى صوتها لوعة وفى نبراتها حسرة . .

ـــ إى والله . هكذا يكون جزاؤنا نحن الذين بلغ من إخلاصنا للمعظم أن حفظنا له عرشـه إلى حين وصوله ، وناديناً به سلطاناً على البلاد وهو لايزال غائباً فى أرض نائية .. لقد أخذ يسئ معاملتنا ، ونسى أو تناسى ما أبليناه نحن مماليك أبيـه من الوقوف فى وجه الدخلاء المعتدين ودفع عدوانهم الغاشم .. وأنه لولانا لوقعت البلاد فى قبضتهم .

فيأتيها الرد من بيبرس .

ـــ لقد نسى كل هذا ، يامولاتى ، وازداد غروراً وصلفا منذ عودته .. وبلغنى أنه أصدر أوامره بالقبض على عدد كبير منا ، وإخراجنا من وظائفنا ليسبغها على خدمه الذين استأثروا بإعزازه وعنايته دوننا . .

كفاه أن يقضي وقته بين ندمائه فى الفسق والمجون .. بل كفاه أن ينغمس إلى أذنيه فى الملذات والشراب مع غلمانه ومحظياته .

— لقد رُوى إلىّ يابيبرس أكثر من ذلك . إذ وصل إلى مسامعى أنه عزم على إرسال الأمير أقطاى بالبشرى بالانتصار على الأعداء إلى الأمير بدر الدين لؤلؤ صاحب الموصل ، وأوصاه أن يقبض عليه ويقتله بمجرد وصوله إليه .. كما أنه عزل الأمير حسام الدين نائب السلطنة بالقاهرة ، وتركه مطروح الجانب .. بل إنه أخذ يهيننى ويتوعدنى ، وطلب منى أن أرد إليه أموالى وما تحت يدى من الجواهر لينفقها على لهوه وملذاته !

— هل تعلمين ياسيدتى أنه عندما يحتسى الخمر وتلعب برأسه ، يضرب بسيفه رءوس الشموع صائحاً : « هكذا سأفعل بمماليك أبى .. وهكذا سأطيح برقابهم » ؟ !

وتعود أرملة الصالح أيوب قائلة :

— هيه .. لقد هانت شئون الحكم إلى حد أن يتولاها ملك مختل العقل ، سيء التدبير ، فيه خفة وهرج وطيش .. إن تصرفاته هذه نفرت منه قلوب المماليك والأجناد وعامة الشعب ، وإن الجميع يتحينون الفرصة للخلاص منه .

— إن الأمر جد خطير .. فالخطر محدق بنا وببلادنا . . وعلمت أنه يود الاتفاق مع الفرنج بأى ثمن ليخلو له الجو ، ولو كان ذلك على حساب الوطن وحريته واستقلاله .. وأرى أن نسرع بالتخلص منه ، لأننا لو وقفنا مكتوفى الأيدى لكان فى ذلك هلاكنا وضياع بلادنا العزيزة .

* * *

كان من نتيجة ذلك أن انفتحت هوة العداء بين توران شاه وبين الأمراء البحرية ورجال الجيش وعلى رأسهم زوجة أبيه شجرة الدر . . ولا سيما أن الأمر يتعلق بمصير البلاد ومستقبلها .. وازدادت هذه الهوة مع الأيام عمقاً واتساعاً . . وانتهى الأمر باتفاق شجرة الدر والأمراء فيما بينهم على ضرورة التخلص منه قبل أن يفلت الزمام ويصعب علاج الموقف .

ففى يوم الاثنين الثانى من مايو مدّ المعظم السماط فى سرادقه المقام على ضفة النيل فى فارسكور ، وتناول الطعام مع بعض رجال حاشيته وندمائه .. وبعـــد أن فرغوا منه ، قام السلطان من مجلسه ودخل خيمته . . وفجأة اقتحم الأمير بيبرس البندقدارى الخيمة وقد شهر سيفه فى وجه السلطان قائلا :

— إنه من الإجرام فى حق هذا الشعب الأبى ، وفى حق هذه البلاد الآمنة التى آوتك ورفعتك إلى مصاف الملوك ، أن تبقى عليك حيا ترزق .. وإن الثمن الوحيد لكرامة هذا الشعب التى أهدرتها هو دمك .. وقد جئت اليوم باسمه لغسل العار الذى لحقه على يديك .

قال المعظم فى خبث :

— ما رأيك يا بيبرس فى أن أجعلك والياً على الإسكندرية .. أو نائب السلطنة فى العاصمة ؟

فقال بيبرس فى إصرار :

— لست وزملائى ممن تستهويهم المناصب والألقاب . . لقد جئنا لتطهير البلاد من مفاسدك .

وفى استعطاف قال المعظم :

— أتوسل إليك يابيبرس فى العفو عنى .. إننى على استعداد للتنازل عن عرشى ، على أن تبقوا على حياتى وتتركونى أغادر البلاد ..

ويواصل بيبرس حديثه فى عزم وسخرية :

— لقد خنت الأمانة التى حملناك إياها . والآن جاء دورك يامولاى ..!

وحينئذ اقترب قائد الجيش من المعظم ووجه إليه ضربة بسيفه بترت بعض أصابعه ، ثم أسرع بمغادرة الخيمة ، وتحامل السلطان على نفسه ، وصعد إلى البرج والدماء تنزف من حيث ضمد جراحه ، ولكن سرعان ما أحاط المماليك بالبرج ، ونادوه لكى ينزل إليهم . . ولما رفض الإذعان رموا البرج بالنيران الإغريقية ، فاندلعت فيه ألسنة اللهب .. ففزع السلطان ، وألقى بنفسه منه ، واتجه مسرعاً نحو الشاطئ ورمى بنفسه فى النيل طلباً للنجاة .. لكنهم لحقوا به فى الماء وهو يسبح حتى وصل الماء إلى حلقه ، وأدركه أقطاى وضربه بالسيف فأصاب منه مقتلا .

وهكذا جنى الملك الضليل ثمرة مجونه وشهواته واستهتاره ..

وهكذا مات المعظم توران شاه جريحاً حريقاً غريقاً .. وتركت جثته ملقاة على ضفة النهر ثلاثة أيام دون أن يجسر أحد على دفنها ، حتى شفع فيه رسول خليفة بغداد ، فحمل إلى الجانب الآخر من النهر ودفن ..

* * *

وبعد مقتل توران شاه اجتمع الأمراء والمماليك البحرية وأعيان

الدولة عند سرادق السلطان ، وأجمعوا على تنصيب شجرة الدرعصمة الدين أم خليل ملكة لغزير عقلها ، وسعة حيلتها ، ولعلمهم أنها كانت تشارك زوجها الراحل فى تدبير أمر المملكة .. فهى التى قامت بإدارة دفة الحكم فى الفترة بين وفاة الصالح ومقدم ابنه المعظم ، كما خرجت بالبلاد سالمة مما يتهددها عندما كان الأعداء على الأبواب ، وعهد المماليك إلى الأمير عز الدين أيبك التركمانى الصالحى بقيادة الجيش .. وحلف لها الجند باعتبارها ملكة ، وله باعتباره قائداً عليهم ، وأنهى أحد الأمراء إلى شجرة الدر ما استقر عليه رأيهم ، فوافقتهم على ذلك مبدية رضاءها وارتياحها .. وصارت الأمور كلها راجعة إليها ، وخرجت المراسيم والأوامر باسمها ، وخطب لها على منابر مصر والقاهرة ، وضرب اسمها على الدراهم والدنانير ، وعد هذا حدثاً فذاً ، إذ كانت أول امرأة بل المرأة الوحيدة التى حكمت مصر فى التاريخ الإسلامى كله .

مفاوضات الصلح

وبموت توران شاه وإعلان شجرة الدر ملكة على البلاد ، ينقضى حكم الأسرة الأيوبية فى مصر ويبدأ عصر المماليك البحرية . . هــذا والفرنسيون فى أسر المصريين لا يكادون يعرفون من أمر هـذه الحركة سوى أن سلطاناً اغتيل ليحل محله سلطان آخـر . .

فى تلك الفترة التى كانت فيها حياة لويس وباقى الأسرى فى كفة القدر ، بدأت المفاوضات بين المصريين والفرنج . . وكان يمثل شجرة الدر والأمراء البحرية وفد على رأسه الأمير حسام الدين بن أبى على . لما كانوا يعرفونه عنه من رجحان عقله ، وحسن تقديره للأمور ، واعتماد الملك الصالح عليه .. وناب عن الفرنج « وليم » أمير الأراضى الواطئة ..

ودامت المفاوضات فترة طويلة ، أذعن الأعداء بعدها للشروط التى أملاها عليهم المصريون . . وأبرم الفريقان معاهدة الصلح التى نصَّ فيها على أن يرد الملك الفرنسى مدينة دمياط إلى المصريين ، وعلى ألا يقصد سواحل الإسلام مرة أخرى ، وأن يدفع مبلغاً معيناً من المال نظير إخلاء سبيله وسبيل باقى الأسرى ، وعوضاً عن الأضرار التى لحقت بالبلاد خلال العدوان . . وتعهد المصريون من جانبهم برعاية مرضى الفرنج الذين بدمياط ، والمحافظة على معداتهم إلى أن تحين الفرصة لأخـذها . . ثم أقسم الطرفان باحترام هذه الشروط وعدم الإخلال بها . .



رسل مصر يملون شروط الصلح على أسرى الفرنسيين

المصريون يستردون دمياط

وما إن أبرمت المعاهدة حتى توجهت قوة كبيرة من الجيش المصرى إلى دار ابن لقمان حيث يوجد الملك الأسير .. وفى الحال نقل هو وشقيقاه مع كبار الأسرى من الفرنج تحت الحراسة فى أربع سفن حيث أرسوا قبالة الطرف الشرقى لجسر دمياط فى مساء يوم الخميس الخامس من مايو سنة ١٢٥٠م — ٦٤٨هـ وذلك بعد أسر دام قرابة شهر .. وهنالك ضربت خيمة كبيرة للملك الفرنسى بالقرب من الجسر نزل بها ..

وفى صباح يوم السبت السابع من نفس الشهر أوفد لويس أحد رجاله إلى دمياط لتسليمها للمصريين .. وفى اليوم نفسه دخلت القوات المصرية ثانية إلى المدينة ، ورفعت العلم المصرى على سورها وأبراجها خفاقاً عالياً ، وأعلن فيها بكلمة الإسلام وشهادة الحق ، بعد أن ظلت فى أيدى الغزاة زهاء عام كامل ..

وفى مساء اليوم نفسه أخلى المصريون سبيل الملك لويس وعدد كبير من الأمراء وكبار الفرنج وفرسانهم ، من بينهم كونت أنجو ، ولكنهم أبقوا عندهم كونت بواتييه رهينة إلى أن يدفع الملك الفدية كاملة حسب الاتفاق . ولما دفعت أطلق سراح الكونت ، ونقل الجميع إلى البر الغربى لدمياط ، وكانت تحيط بالملك قوة كبيرة من المشاة المصريين ، وهنالك كان فى انتظار لويس سفينة جنوية راسية بالقرب من الشاطئ ..

وفى يوم الأحد الثامن من مايو عام ١٢٥٠م - ٦٤٨ هـ أقلعت سفن الأعداء من دمياط تقل الملك الفرنسى وفلول قواته ، بعد أن أضنتهم الهزائم المتتالية ، واستبدت بهم الكوارث المتلاحقة ، حتى لم تبق منهم إلا أقلية هزيلة محطمة .

مآتم .. وأفراح ..

وفى الوقت الذى غادر فيه ملك الفرنسيين وبقايا جيشه المحطم الديار المصرية ، تصل رسالة إلى فرنسا من لويس تصف المآسى التى أنزلها المصريون به وبقومه ، وتفيض ألماً ولوعة وحسرة ، لما منيت به الحملة من ضربة قاصمة وهزيمة منكرة .. وكان هذا النبأ بمثابة مأتم عام فى أوروبا .. أما فرنسا فقد لبست ثوب الحداد ، وشملها الحزن من أدناها إلى أقصاها ، وتحول كل شىء فى المملكة إلى أنين وبكاء ونحيب ؛ فالآباء والأمهات ينـدبون أبناءهم ، والصغار واليتامى يبكون ذويهم ، والأقارب والأصدقاء ينوحون على أقاربهم وأصدقائهم ..

أما فى مصر ، فقد عمت الأفراح بعد هزيمة الطغاة ، وأعلنت البشائر فى سائر البلاد العربية .. واحتفل المصريون بصلاة الجمعة فى مسجد دمياط الذى كان الفرنجة قد أحالوه إلى كنيسة لاتينية خلال عدوانهم الأخير .. ودقت أجراس الكنائس ابتهاجاً بالنصر .. وعادت القوات المصرية المنتصرة من دمياط إلى القاهرة وهى تنشد أهازيج النصر.. وعند ما مر الجند بالمنصورة زاروا أضرحة شهدائهم فى المعركة .. ثم توجه أفراد الشعب إلى جامع الشيخ الموافى القائم فى وسط المدينة حيث أدوا الصلاة خشوعاً بين يدى الله ، وتليت الفاتحة على أرواح الشهداء الذين رووا الأرض بدمائهم الزكية الطاهرة .. ولما وصل موكب النصر إلى العاصمة ، انتهزت الملكة شجرة الدر هذه الفرصة ، فأنفقت الهبات

والأموال ، وخلعت على الأمراء والجند وأرباب الدولة ، وأنعمت عليهم بالرتب والمناصب العالية ، تقديراً لما أبدوه من ضروب البسالة فى سبيل طرد الغزاة وتطهير البلاد . .

وتبارى الشعراء فى تمجيد هذا النصر والإشادة به . . ولم يدع شاعر مصر جمال الدين بن مطروح هذه الفرصة تمر دون أن يسجلها فى قصيدة عصماء قال فيها :

قل للفرنسيس إذا جئته ... مقال حق صادر عن نصيح
آجرك الله على ما جرى ... من قتل عُبَّاد يسوع المسيح
أتيت مصراً تبتغى ملكها ... تحسب أن الزمر يا طبل ريح
فساقك الحَيْنُ إلى أدهم ... ضاق به عن ناظريك الفسيح
وكل أصحابك أوردتهم ... بقبح تدبيرك بطن الضريح
خمسون ألفاً لا يرى منهم ... إلا قتيل أو أسير جريح
وفقك الله لأمثالها ... لعل عيسى منكم يستريح

واختتمها مشيعاً متوعداً :

وقل لهم إن أضمروا عودة ... لأخذ ثار أو لقصد صحيح
دار ابن لقمان على حالها ... والقيد باق والطواشى صبيح

ومن أطرف ما قيل فى هذه المناسبة أيضاً ما تغنى به شاعر آخر :

أركبهم أدهماً خضماً ورابح الشر فهو خاسر
ورام « باباهمو » أموراً فأخلفت ظنه المقادر
وأذهل القوم هول حرب تشخص من خوفه النواظر
لم تعم أبصارهم ولكن قد عميت منهم البصائر

* * *

فإن يعد طالباً لثأر من أرض دمياط فليبادر
فذلك البحر تعرفوه والسيف ماض والجيش حاضر

ويحكى أن شاباً من أهالى تونس تنبأ بالمصير الرهيب الذى ينتظر هذا الملك عند ما بلغه عزمه على قصد بلاده ، وكان ذلك بعد عشرين سنة من هزيمة الفرنسيين فى مصر أى فى سنة ١٢٧٠ م ، فقال :

يا فرنسيس هذه أخت مصر فتأهب لما إليه تصير
لك فيها دار ابن لقمان قبر وطواشيك منكر ونكير

وقد كان هذا فألا حسناً .. فقد مات ملك الفرنسيين — أى لويس التاسع — وهو على محاصرة تونس وعلى أبواب قرطاجنة ، دون أن يتأتى له تحقيق أطماعه .. ودون أن يمسح عن جبينه عار هزيمته السابقة فى مصر ..

وبموت الفرنسيس تقلص ظل الاستعمار فى العالم العربى ، وأصبحت هذه المحاولات الخرقاء حلماً من أحلام الماضى البعيد ، عمل الفرنج على تحقيقها عدة قرون متلاحقة ، فكان نصيبها الإخفاق والخذلان ..

* * *

وبعد فهذه هى قصة أسر الملك الفرنسى لويس التاسع واندحار العدوان الصليبى فى المنصورة وعلى ضفاف النيل فى منتصف القرن الثالث عشر الميلادى .. بل هذه هى قصة البطولة والكفاح ضد الاستعمار يرويها التاريخ ليتذكر الفرنسيون ما نزل بأسلافهم من كوارث وويلات ، وليتذاكر الأبناء والأحفاد من أهل العربية أمجاد الآباء والأجداد ..

دراسة تحليلية فى أسباب فشل العدوان

لقد باءت حملة لويس التاسع الصليبية على مصر بالإخفاق التام، وعادت أدراجها من حيث أتت دون أن تحقق الغرض العدوانى الذى قامت من أجله، وبعد أن لقيت شر أنواع الهزائم على ضفاف النيل. ويمكن إرجاع فشلها إلى عدة أسباب متفاوتة التأثير أدت بها إلى هذه النهاية المخزية.

لا خلاف أن الفضل الأول فيما لحق بالصليبيين من هزائم وويلات يرجع إلى موقف الشعب المصرى من الحوادث التى مرت بها البلاد فى تلك الفترة العصيبة من تاريخها، ذلك الموقف الذى سجله لنا الكتاب والمؤرخون بأحرف من نور فى كتبهم وتآليفهم. لقد أثبت هذا الشعب الواعى أنه لم يكن بمعزل عما يجرى حوله من أحداث وتقلبات، إذ شارك مشاركة فعلية فى الدفاع عن كل شبر من أرض الوطن ضد الفرنج المعتدين، مضحياً فى ذلك بكل شيء، مستعذباً الموت فى سبيل حريته واستقلاله وكرامته. ولم يترك وسيلة إلا اتخذها لمضايقة أولئك الدخلاء وإلحاق الأذى بهم، إلى أن انتهى الأمر بطردهم وتطهير البلاد من دنسهم وأدرانهم. فبدا كالمارد العملاق الذى أدى دوره فى المعركة كأحسن ما يكون الأداء. كان المرجل الذى يغلى والنار المستعرة التى ألهبت ظهور المعتدين. وكان القوة الكامنة التى أذهلتهم وبلبلت خواطرهم ولقنتهم دروساً لن ينسوها فى التضحية والاستشهاد وفى البطولة والكفاح. لقد تمكن الشعب باتحاده وتماسكه من الوقوف فى وجه الغزاة وقفة رجل

واحد ، ولولا بلاؤه ومواقفه المشرفة يومذاك في المنصورة وفارسكور ما تم إحراز الغلبة على العدو . كان يقاتل دفاعاً عن شرفه وكيانه ، ويذود بروحه ودمه عن بلاده ، ويجاهد مستشهداً عن عقيدة وإيمان حتى كتب له النصر ضد قوات البغى والعدوان .

وإلى جانب هذا العامل الأساسى ، كانت توجد عوامل أخرى أدت متجمعة إلى إخفاق الفرنج فى تحقيق بغيتهم .

فمن أسباب الهزيمة جهل لويس التاسع ورجاله بجغرافية البلاد المصرية وطبوغرافية الطريق الذى اتخذوه للوصول إلى القاهرة بعد احتلالهم لمدينة دمياط . فقد ارتكب لويس نفس الخطأ الذى وقعت فيه حملة جان دى برين على مصر قبل ذلك التاريخ بثلاثين سنة ، إذ استخدم نفس الطريق المائى الوعر الذى استخدمه جان دى برين من قبل ، نعنى الطريق من دمياط إلى القاهرة ماراً بالمنصورة فبنها . ولا نغالى إذا قلنا إن غزو مصر عن هذا الطريق كان مصيره الإخفاق إذا ما أبدى المدافعون شجاعة وذكاء عاديين .

وإن المصير الذى آلت إليه حملة لويس التاسع ومن قبلها حملة جان دى برين ، لهو دليل كاف على صحة ما نقول . فلم يستول قائد الحملة الصليبية الخامسة على دمياط إلا بعد حصار دام زهاء سبعة عشر شهراً ، وعندما تقدم داخل الدلتا كانت قواته قد أنهكت بعد هذا الحصار الطويل ، وقد توقفت أمام بحر أشموم حيث كان يعسكر قبالته من الناحية الأخرى جيش الملك الكامل محمد مستعداً لتوجيه الضربة القاصمة .

وقد قام الفرنج بعدة محاولات فاشلة لعبوره ، وأحسوا بخيبة الأمل

عندما تبينوا أن الأرض التي كانت تفصل بينهم وبين قاعدتهم فى دمياط قد غمرتها مياه الفيضان ، إذ كان النيل فى ازدياد ، واستغل المصريون هذه الفرصة وهدموا السدود ، فأسرع الأعداء بالتراجع صوب دمياط ، لكن المياه كانت تحيط بهم من كل جانب ، وأسقط فى أيديهم ، وتعقبهم المصريون بشدة . ولكى ينجو الصليبيون بأنفسهم من المجاعة أو الغرق اضطروا إلى طلب فتح باب المفاوضات ، وقد سمح لهم السلطان بالرحيل بعد أن أخلوا دمياط مرغمين منهزمين . وكان ذلك فى سنة ٦١٨ هـ — أغسطس سنة ١٢٢١ م .

أما مصير حملة لويس التاسع فكان أسوأ من تلك بكثير عندما اتبع نفس الطريق فى نوفمبر عام ١٢٤٩ م . وإنه لايسعنا بعد ما كان من أمر حملة جان دى برين ، إلا أن نعجب لاختياره نفس الطريق . ولقد بدأ بداية أكثر توفيقاً من سلفه ، لأنه وضع يده على دمياط بعد مناوشات بسيطة مع القوات المصرية . ولكنه عندما بدأ زحفه أخيراً فى نوفمبر ، بعد ما أضاع بدمياط قرابة ستة أشهر ، واجهته نفس العقبة التى تسببت فى إخفاق حملة جان دى برين ، وهى قناة أشموم التى كان من المستحيل عبورها ، والتى كان الشعب والجيش يقومان بالدفاع عنها من الناحية الأخرى . وقد حاول لويس مراراً إقامة جسر لعبور قواته ، إلا أن المصريين كانوا يحطمونه بنيرانهم الإغريقية مرة بعد أخرى . وأخيراً أفلح ملك الفرنسيين فى عبور القناة هو ورجاله ، وأقاموا لأنفسهم مركزاً جنوبى هذه القناة . لكن هذا النجاح كلفهم غالياً بعد ما لاقوه من الصعاب والمخاطر فى سبيل عبورها ، حتى أنه لم يكن بوسعهم التقدم أكثر من ذلك . وقد لبثوا بالقرب من المنصورة بضعة أشهر غير قادرين

على التقدم أو راغبين فى التراجع ، إلى أن تفشت المجاعة والوباء بينهم فى آخر الأمر فاضطرتهم إلى الارتداد . ولكنهم لاقوا الأمرين من ضربات المصريين الذين قطعوا عليهم طريق العودة . وأخيراً أحيط بالملك الفرنسى واقتيد أسيراً . وبعد ذلك سرعان ما ألقت فلول جيشه المحطم سلاحها مستسلمة . وقد اضطر الملك الأسير وجيشه الكسير إلى قبول ما فرضه عليهم المصريون .

ومما يجب الإشارة إليه تعليقاً على خطة الملك لويس الحربية فى اختياره هذا الطريق ، أنه حتى لو كان قد نجح فى عبور بحر أشموم بمجرد وصوله إليه ، فإنه كان عليه بعد ذلك عبور عدة أفرع وقنوات أخرى تخرج من النيل قبل وصوله إلى القاهرة . ولا يمكن تفسير حماقة أولئك الدخلاء فى اختيارهم هذا الطريق غير العملى إلا بجهلهم بطبيعة البلاد الجغرافية فى تلك الأيام التى خلت من الخرائط .

وقد أشار المؤرخ الإنجليزى المعروف شارل أومان إلى الطرق التى كان يمكن حملة لويس اتخاذها للوصول إلى عاصمة الديار المصرية ، فيقول إنه للوصول إليها لم يكن هناك إلا طريقان عمليان حتى يمكن للقوات الصليبية تفادى قنوات الدلتا ومجاريها العديدة . وأحد الطريقين هو الرسو فى الإسكندرية مع الاحتفاظ بخط سير إلى غربى فرع النيل الغربى (فرع رشيد) ، كما فعل نابليون بونابرت فى حملته على مصر عام ١٧٩٨م ويمر هذا الطريق بدمنهور والجيزة ، وتنحصر مساوئه فى أن المرحلتين أو الثلاث المراحل الأولى فيه تقع فى صحراء ، وتنتهى بالغزاة عند الجيزة قبالة القاهرة والنيل مازال فاصلا بينهم وبين هدفهم . وقد يكون فى

عبور الفرنج النيل بعد هذا المسير الطويل بعض الصعاب فى مواجهة أفراد الشعب والقوات المصرية على الضفة الشرقية . ولكن مما لاشك فيه أن طريق الإسكندرية ـــ القاهرة كان أسهل وأسلم عاقبة من طريق دمياط ـــ القاهرة ، على الرغم مما كان يعترضه من عقبات ، كما أنه كان يوسع الفرنج بعد استيلائهم على دمياط أن يتفادوا هذا الخطأ الذى وقعوا فيه فى محاولتهم الثانية ، فينزلوا على الإسكندرية بدلا من التوجه جنوباً من دمياط صوب العاصمة ، ولكنهم لم يفعلوا ذلك .

أما الطريق الثانى فيبدأ بالقرب من الفرما القديمة التى كانت تسمى وقتذاك بلوزيم ، ويمر بالصالحية وبلبيس فى الطريق إلى القاهرة مع السير إلى شرقى الفرع الشرقى للنيل ، وهو يؤدى بالغزاة إلى القاهرة مباشرة ، كما أنه يخلو من القنوات والترع . وقد تعرضت مصر مرارا للغزو من هذا الطريق الذى سار فيه قمبيز والإسكندر الأكبر وآمورى الأول الملك الفرنجى لبيت المقدس وغيرهم . ولكن هذا الطريق كان يتطلب قاعدة للهجوم ، كأن يتحكم الفرنج فى سورية مثلا ، وهذا الأمر لم يتوفر للفرنج سنة ١٢٤٩م ، كما أنه لم يكن هناك ميناء يمكن الاستيلاء عليه واستخدامه كقاعـــدة للإمداد ، إذ انتهى أمر الفرما بأن خربها شاور وزير العاضد آخر خلفاء الفاطميين بمصر فى منتصف القرن السادس الهجرى لما قاسته من غارات الفرنج المتتالية عليها . ولكن رغماً عن ذلك فقد كان لهذا الطريق مزاياه ، لأن الرسو هناك كان ممكناً لأسطول بحرى كبير . إذ أن الساحل شرقى الفرما على الرغم من قلة غوره عند الشاطئ ، كان يخلو من أية عقبة حقيقية تعترض تقدم سفن خفيفة كسفن القرن الثالث عشر الميلادى . وإن نظرة فاحصة إلى خرائط الدلتا فى المنطقة الواقعة شرقى الفرما

ومستنقعاتها . يبدو فيها الشاطئ رملياً ذا عمق يسمح لرسو السفن الخفيفة بالقرب منه . ولكن إذا مارسا الجيش كان عليه أن يودع أسطوله ويخاطر بهجوم مباشر على القاهرة عبر الصالحية .

وكما أخطأ لويس التاسع فى اختيار الطريق السليم الذى يسلكه إلى القاهرة ، كذلك لم يقدر بوصفه قائد الحملة أهمية العامل الزمنى فى الحروب ودخله فى تقرير مصيرها . إن الحروب تقوم عادة على السرعة والمباغتة ، لأن هذه السياسة هى أحسن ما يمكن اتباعه لبث الاضطراب فى المعسكر الآخر . ولكن حوادث الحملة أثبتت أن الصليبيين لم يراعوا على الإطلاق قيمة هذا العامل الهام ، وما يترتب على التباطؤ والتأخير من أضرار بالغة .

فأول ما يسترعى انتباهنا أن الحملة أقامت بقبرص زهاء ثمانية أشهر قبل تحركها صوب مصر (سبتمبر ١٢٤٨ — مايو ١٢٤٩ م) . ومهما كانت الدوافع التى أدت إلى هذا التأخير الطويل ، فإنه كان خطة خاطئة ، وبقدر ما أضر الفرنج المعتدين أفاد المصريين . فلو واصل الصليبيون تقدمهم دون توقف فى الجزيرة لباغتوا قوات المماليك قبل أن تتخذ للحرب أهبتها ، ولوجدوا فصلا ملائماً لعملياتهم الحربية . فقد كان سبتمبر — وهو الشهر الذى وصلت فيه الحملة إلى قبرص — شهراً مناسباً لتقدم الجيش ، إذ كان الفصل خريفاً ودرجة الحرارة معتدلة . لكنهم أضاعوا الأشهر فى الجزيرة يتنازعون فيما بينهم ، كما نفدت أموالهم ومؤنهم ، وانغمسوا فى الملذات نتيجة الكسل ، وانتشرت فى معسكرهم الأمراض التى فتكت بعدد كبير منهم .

وحتى بعد استيلاء الفرنسيس على دمياط في يونيو سنة ١٢٤٩ م — ٦٤٧ هـ يحيرنا هو ورجاله بتصرفاتهم مرة أخـــرى ، فما كان منهم إلا أن قعدوا في دمياط قعودهم في قبرص . فقد أقاموا بها قرابة خمسة أشهر ونصف (٧ يونيو — ٢٠ نوفمبر ١٢٤٩ م) . ولقد أدرك كثير من المؤرخين المحدثين ما ترتب على هذا التأخير من مضار ، واعتبروه بمثابة ضربة قاضية أصابت الحملة . لقد كان بوسع الملك الفرنسي أن يواصل زحفه بعد احتلاله دمياط في يونيو ١٢٤٩ م — ٦٤٧هـ ، ولكنه لم يفعل . حقاً أن شهر يونيو كان موسماً غير مناسب للغزو خاصة وأن درجة الحرارة كانت على أشدها ، ولكن لما كان الغزاة قد بدأوا حملتهم فعلا ، فقد كان عليهم أن يواصلوها . وكان في تأخرهم ما أعطى الفرصة للصالح أيوب لتنظيم دفاعه بعد أن وضح له الطريق الذي سوف يسلكه أعداؤه بينما انغمس الصليبيون أنفسهم في الفسق والفجور ، مما أدى إلى اختلال نظامهم وبث الفوضى في صفوفهم كما حدث تماماً خلال إقامتهم في قبرص. وأخيراً عندما قرر الدخلاء السير من دمياط جنوباً صوب العاصمة في نوفمبر ١٢٤٩ م ، نراهم يتحركون في بطء شديد ، إذ قطعوا المسافة من دمياط إلى بحر أشموم وهي لا تزيد على خمسين ميـــلا في ٣١ يوما (٢٠ نوفمبر — ٢١ ديسمبر ١٢٤٩ م) تكبدوا فيها الكثير من المشاق والمخاطر .

وعندما وصل الفرنج إلى شمالي بحر أشموم والنهر يفصل بينهم وبين القوات المصرية على الضفة الجنوبية ، أضاعوا أيضاً فترة تقرب من شهر ونصف (٢١ ديسمبر ١٢٤٩ — ٧ فبراير ١٢٥٠ م) فقدوا

خلالها عدداً كبيراً من رجالهم وعددهم فى سبيل القيام بمحاولة خرقاء ، نعنى محاولتهم عبور هذا المجرى المائى أمام شعب قوى متأهب لمواجهتهم ونزالهم وتأديبهم . وأخيراً أفلح لويس فى عبور القناة عن طريق مخاضة دله عليها أحد جواسيسه ، حيث اشتبك مع المصريين فى معركتين كبيرتين ، فقد فيهما عدداً لا يستهان به من جنده وخيله وعتاده . وكانت الحكمة تملى عليه آنذاك أن يتراجع هو وفلول قواته من حيث أتوا فى الوقت الذى كان فيه هذا التراجع ممكناً . لكنهم لم يتحركوا بعد هاتين الموقعتين ، وأضاعوا الوقت كما أضاعوه من قبل فى قبرص ودمياط وفى الطريق من دمياط إلى بحر أشموم وقبالة بحر أشموم نفسه . فقد ظل جيش الأعداء مقيماً جنوبى هذا البحر ٥٥ يوماً (١١ فبراير — ٥ أبريل ١٢٥٠ م) آملا فى معاودة العدوان بالهجوم على المنصورة ومواصلة الزحف صوب العاصمة . وكان كل يوم يمر بالفرنج يزيد مركزهم سوءاً . فقد تفشى فى معسكرهم الوباء والمجاعة مما فتك بعدد كبير منهم ، أما الباقون فقد بلغوا درجة من الضعف لم تمكنهم من مواصلة الكفاح . وعندما قرروا التراجع فى آخر الأمر من المنصورة إلى قاعدتهم فى دمياط (فى ٥ أبريل) كان ذلك متأخراً جداً ، إذ سار الشعب وقوات المماليك البحرية فى إثرهم مكبدين إياهم خسائر فادحة فى قرية فارسكور ، وقد اقتادوا الملك الفرنسى ورجاله أسرى ، ولم يخلوا سبيلهم إلا بعد أن دفعوا فدية كبيرة وبعد أن تركوا دمياط مرغمين .

وعلى هذا يمكننا القول بأن العامل الزمنى لعب دوراً هاماً فى هذه الحملة ، فكلما طال الوقت كان ذلك فى خدمة المصريين وفى غير صالح المعتدين على طول الخط .

أما العامل الرابع الذى تسبب فى انهزام الصليبيين فهو العصيان وعدم الطاعة . فلم يكن الملك لويس قائد هذه الحملة صاحب السلطة المطلقة ، ومن ثم لم يكن قادراً على فرض إرادته على قواده ورجاله ، وإلزامهم باتباع أوامره . فكان رجال الحملة من جند وقواد على السواء يتصرفون حسبما يتراءى لهم ضاربين بأوامر قائدهم الأعلى عرض الحائط . ويزخر تاريخ هذه الحملة بالأمثلة التى تؤيد هذا . فعندماوصل الفرنج إلى قبرص ، كان الملك شديد الرغبة فى الزحف السريع إلى مصر دون التوقف بالجزيرة ، لكنه اضطر إلى الإقامة بها فترة طويلة نزولا عند رغبة قواد جيشه . وكذلك فى فترة إقامة الجيش بدمياط ، انغمس الفرنج فى الملذات على مرأى من مليكهم ، حتى أنه أصبح عاجزاً تماماً عن السيطرة عليهم ووضع حد لاستهتارهم . ولعل أبلغ مثل على عصيان الأوامر الملكية مافعله روبرت بعد عبوره بحر أشموم ، إذ اندفع نحو المنصورة غير مبال بأوامر أخيه ، ولقد بذل الملك ما فى وسعه لمنعه من التقدم ، وأرسل إليه عشرة فرسان يأمرونه بالتوقف والانتظار . ولكن روبرت اختار أن يقوم بهجومه المتهور مخالفاً أوامر قائده ، ذلك الهجوم الذى باء بالفشل أمام كفاح الشعب وتصميمه على سحق العدو . وهكذا أودى شقيق لويس بحياته هو ورجال المقدمة كلهم تقريباً (صباح ٨ فبراير سنة ١٢٥٠م) .

وقد يفسر هذا العصيان بأنه لم يكن للفرنسيين جيش قوى موحد ، وأنهم كانوا ينظمون قواتهم على الطريقة الإقطاعية التى كانت متبعة فى العصور الوسطى ، وأن الملك ما زال هو « الأول بين أقرانه » ليس له

عليهم سلطة حقيقية . ولكن كيفما كان الأمر فإن قائد جيش إقطاعى كلويس التاسع لم يكن يعقل أو يتوقع أن تتحطم خططه وتتكسر تعليماته من جراء عصيان كهذا .

وفى الوقت الذى كان فيه ملك الفرنسيين لا يتمتع بأى نفوذ حقيقى على رجال جيشه ، نجد أن السلطة كلها كانت مركزة فى يد خصمه سلطان مصر . وكانت أهم صفة يتحلى بها جند مصر هى الطاعة العمياء لأوامر قائدهم . فقد كان للسلطان هيبة بالغة فى نفوس مماليكه حتى أنهم كانوا يرتجفون رعباً عند المثول فى حضرته :

سجدت له حتى العيون مهابة   أو ما تراها حين يقبل تطرق
ملأ القلوب مخافة ومحبة   فالبأس يرهب والمكارم تعشق

وإن مميزات ملوك بنى أيوب هذه تظهر لنا مدى التباين بين قوتهم وبين ضعف لويس التاسع كقائد ، والبون الشاسع بين مبدأ الطاعة العمياء التى يدين بها أجناد مصر لسلطانهم ، وبين روح التمرد والعصيان التى تفشت فى معسكر الأعداء .

وهناك عامل هام يجب ألا نغفله كان له أثره فى هزيمة الحملة ، ألا وهو تفوق المصريين فى الناحية الحربية على الصليبيين . فقد كانت مصر فى العهد الأيوبى تحتفظ بجيش قائم منظم ، مدرب أحسن تدريب ، صناعته الحرب والقتال ، كما شهد بذلك أحد المحاربين الصليبيين وهو جان دى جوانفيل الذى اشترك فى الحملة وكتب عنها ، وكان هذا الجيش مقسماً إلى طوائف وفرق وطبقات ، كما كان يتكون من فرسان ومشاة مجهزين بكل ما أنتجه العصر الوسيط من أسلحة ومعدات ، أهمها السيوف

والسهام والرماح والنشاب والقسى والدبابيس والدروع والمتاريس ومكاحل البارود وقوارير النفط والستائر والمنجنيقات . وقد اعتنى الأيوبيون بأمر هذا الجيش ، حتى أنهم كانوا ينفقون جزءاً كبيراً من إيرادات الدولة على إصلاح حاله وبناء مايلزمه من الحصون والقلاع ، وكانت غالبية الجيش الأيوبى فى عهد الصالح نجم الدين تتألف من المماليك الأتراك الذين اقتنى عدداً كبيراً منهم ، وقد أنشأ لإقامتهم قلعة جزيرة الروضة التى جهزها بكثير من الأسلحة والأزواد لتكون حصن الدفاع عن مصر ضد المعتدين ، وقد عرف هؤلاء المماليك باسم المماليك البحرية نسبة إلى هذه القلعة التى ابتناها لهم . وإليهم يرجع بعض الفضل فيما أحرزته البلاد من انتصارات باهرة على لويس التاسع ورجاله .

كذلك وجه الصالح أيوب عناية خاصة إلى البحرية المصرية لعلمه أنها من أهم وسائل الدفاع عن البلاد ضد المغيرين عليها . ويكفى للتدليل على ذلك أنه عندما علم بعزم الفرنج على قصد مصر ، أمر فى الحال بتجهيز السفن وإرسالها إلى ميناء دمياط لمنع الأعداء من النزول إليها وامتلاكها . كما أسدى النصح إلى ابنه توران شاه فى وصيته التى تركها له قبل وفاته ، بتقوية الأسطول المصرى حتى يمكنه إحراز الغلبة على العدو ، ويرجع الفضل إلى السفن التى صنعها توران شاه وأنزلها فى بحر المحلة خلف المعسكر الصليبى ، فيما نزل بالفرنج المقيمين جنوبى بحر أشموم من محن وبلاء . وكانت أهم القطع التى يتألف منها الأسطول المصرى وقتذاك ، والتى ورد ذكرها فى ثنايا الكتاب ، هى : الشوانى والغربان والحراريق والمسطحات والبطس والطرائد والمرمات .

ويختلف الأمر تماما عندما ننظر إلى الجيش الصليبي ، فهو يضم إلى جانب الفرنسيين الذين كانوا يؤلفون غالبيته ، جماعات قليلة من الإنجليز والإيطاليين والقبارصة والرهبان المحاربين . فكان هذا المزيج العجيب سبباً فى اختلاف ميولهم وأغراضهم وطباعهم وعدم اتحاد كلمتهم ، ومن أمثلة ذلك الانقسام الذى بدا واضحاً بين الفرق التى كانت تتألف منها مقدمة الجيش الفرنجى التى عبرت قناة أشموم عن طريق المخاضة فى صباح ٨ فبراير سنة ١٢٥٠ م ، فلم يكن هناك أى انسجام بين الفرنسيين من ناحية وبين الإنجليز وجماعات الرهبان العسكرية من ناحية أخرى .

ويلاحظ أيضاً أن المصريين كانوا أكثر براعة من خصومهم فى أمور القتال والتكتيكات الحربية مما ساعدهم على التغلب عليهم . وتعتبر موقعة المنصورة الثانية (١١ فبراير ١٢٥٠م) مثلا حياً على براعة أبناء الوادى فى إحكام الخطط الحربية وتنفيذها . كما كان المصريون موفقين أيضاً فى تدبير الحيل والخدع الحربية التى لجأوا إليها لمضايقة أعدائهم ، والتى تتمثل أحسن تمثيل فى الخطة التى اختطها المعظم توران شاه عقب وصوله إلى المنصورة ليقطع الميرة (الأقوات) عن الفرنج المقيمين جنوبى بحر أشموم ، مما أدى إلى تفشى المجاعة بينهم . كما استطاع المصريون بخططهم الموفقة أيضاً أن يفسدوا على أعدائهم عملهم فى تشييد جسر على بحر أشموم للعبور إلى الضفة الجنوبية حيث يوجد المعسكر المصرى .

هذا عن المصريين ، أما الفرنج فلم يراعوا النظام والدقة فى تنفيذ خططهم الحربية وإحكامها . وآية ذلك موقعة المنصورة الأولى التى بدأت دون أى نظام ودون قيادة موحدة نتيجة عدم الطاعه والتهور والانقسام

بين رجال المقدمة ، مما أوردهم مورد التهلكة داخل المنصورة نفسها وفى شوارعها ودروبها . وفوق هذا فقد كان الغزاة يحاربون فى أرض غريبة عنهم ، ولم تكن معداتهم ولا لباسهم فى الحرب تتفق مع طبيعة البلاد التى يحاربون فيها . فقد كانوا يرزحون تحت خوذهم ودروعهم الثقيلة على طريقة الحرب فى العصور الوسطى ، وكانت هذه الأثقال ترهقهم ولا تساعدهم على الحركة بسرعة خصوصاً فى جو مصر الحار . كما كانوا يستخدمون الجياد الضخمة الثقيلة التى تحول بينهم وبين تنظيم صفوفهم بسرعة إذا ما اختل نظامهم . وقد بدا هذا واضحاً فى معارك المنصورة وعند الانسحاب إلى دمياط .

وفوق ذلك فقد كان لدى المصريين من معدات الحرب أكثر مما لدى الصليبيين ، كما كانوا يستعملون فى قتالهم مع أعدائهم القذائف المحرقة والنيران الإغريقية التى كانوا على علم بها قبل أن يعرفها الغربيون أنفسهم . ونحن لا ننسى وصف جوانفيل لهذه النار التى ألقت الرعب فى أفئدة الصليبيين وأوقعت الخبل والاضطراب فى صفوفهم .

وهكذا كان لما يتمتع به المصريون من وحدة الكلمة ، ووحدة العمل ، ووحدة الصف ، ودقة النظام ، والحركات الحربية السديدة ، والقيادة الحكيمة ، وما كانوا يستخدمونه من الأسلحة التى لم يكن لأعدائهم عهد بها من قبل ، أثره فيما نزل بالمغيرين من هزائم .

وهناك عامل آخر تجدر الإشــارة إليه وهو الانحلال والتدهور الخلقى الذى كان متفشياً فى نفوس الصليبيين مما أدى إلى إنهاك قواهم وضعف الروح المعنوية عندهم . فقد انغمسوا فى الملذات وحياة الفجور

مع نساء الفرنج ، بدلا من السعى فى تنظيم صفوفهم وإعداد خططهم وإحكامها . وإن سلوك الفرنج وتصرفاتهم الشاذة فى قبرص ودمياط لأبلغ دليل على ما نقول . كما أن هناك حادثة رواها مؤرخهم جوانفيل فى مذكراته عن تاريخ حياة مليكه تدل على مدى استهتار الفرنج وخلاعتهم . فقد حدث فى مساء موقعة الثلاثاء ٨ فبراير ١٢٥٠م أن وورى التراب أحد فرسان جوانفيل الذى قتل فى المعركة . وبينما هو فى رقدته الأخيرة داخل تابوته ، أخذ بعض فرسان الفرنج يتحادثون بصوت مرتفع حتى إنهم أزعجوا القس الذى كان يقوم بتلاوة الصلاة الجنائزية . فذهب إليهم جوانفيل راجياً منهم أن يخلدوا إلى الهدوء والسكينة احتراماً لروح زميلهم المتوفى . ولكنهم أخذوا يتضاحكون ويتغامزون فيما بينهم ، قائلين إنهم إنما يبحثون عن زوج آخر لأرملته ! والواقع الذى لا مراء فيه أن هذه التصرفات هى التى تميزت بها أعمال الصليبيين بصفة عامة منذ بداية حركتهم العدوانية فى ختام القرن الحادى عشر الميلادى إلى أن انتهى الأمر بطردهم نهائياً من آخر معاقلهم الهامة بالشرق العربى فى أخريات القرن الثالث عشر أيام الملك الأشرف خليل قلاون .

وهكذا نرى أيضاً أنه فى الوقت الذى كان فيه الفرنج منصرفين إلى اللهو والفحشاء ، كان المصريون منهمكين فى تنظيم جيوشهم وإعدادها لمواجهة العدو والحيلولة بينه وبين التوغل فى بلادهم .

وعلى الرغم من أن هذه الحملة الصليبية اتخذت من الدين ستاراً لتحقيق أغراضها الخبيثة فى الديار المصرية والشرق العربى ، إلا أننا

نلاحظ بشكل ملموس فتور هذه الروح بين غالبية المقاتلين وتدخل المصالح المادية فى الحركة الصليبية . وإن موقف البحارة الجنوية والبيازنة خلال العدوان لدليل على ذلك . فقد غلبت على أولئك البحارة الذين بقوا فى دمياط لحراستها — عند ما تقدم الجيش الفرنسى جنوباً صوب العاصمة — الصفة التجارية ، ورأوا ألا يعرضوا أنفسهم للخطر عند ما علموا بوقوع لويس التاسع ورجاله فى أسر المصريين . فنراهم يقررون ترك دمياط والنجاة بأنفسهم ، ولم يعدلوا عن رأيهم إلا بعد أن ابتاعت الملكة مارجريت كل ما هم فى حاجة إليه ، وأدخلتهم تحت نفقتها الخاصة ؛ فقد كانت حرفتهم التجارة وهمهم الأول والأخير الكسب المادى .

وحتى جماعات الرهبان المحاربين الذين اشتركوا فى الحملة مثل الداوية والاسبتارية ، والذين من أول مبادئهم الطاعة والفقر والحرمان والتقشف ، أخذوا يتطاحنون فيما بينهم على المغانم والأسلاب . كما أظهروا جشعهم وأنانيتهم عند ما رفضوا إقراض لويس التاسع المال اللازم لإتمام دفع الفدية للمصريين حسب الشروط التى اتفق عليها . ولم يحصل الملك على المبلغ المطلوب إلا بعد مناقشات حامية بينه وبينهم اشترك فيها المؤرخ جوانفيل وحفظها لنا فى مذكراته .

ويمكن أن نلمس الفتور الذى طرأ على الحركة الصليبية من قصيدة كتبها شاعر فرنسى عاصر أحداث تلك الفترة يدعى « رتبوف » (١٢٤٥ — ١٢٨٥ م) يقول فيها إنه من الحماقة أن يخاطر إنسان فى حرب تتسم بالطابع الدينى خارج بلاده ، ما دام بوسعه أن يتصل بالله

فى وطنه ويعيش فى نعمة وسلام . ويسخر الشاعر فى القصيدة من رجال الدين الذين جعلوا من الحروب الصليبية وسيلة لابتزاز الأموال . وبذلك عبر تعبيراً صادقاً عن موقف ذوى التعقل فى ذاك العصر .

ويمكن القول بناء على ما تقدم إنه لم يكن لدى الفرنج رغبة صادقة فى الجهاد ، وإن إخـــلاص المصريين لهذا الاعتقاد كان يفوق بلا شك إخلاص الصليبيين له . فقدكان لفكرة الجهاد الدينى عند الأيوبيين أثرها الفعال فيما أحرزوه على أعدائهم من انتصارات . ذلك أن دولتهم قامت على أساس الجهاد ضد الصليبيين البغاة . وكانت كلمة الجهاد تستعمل لإلهاب الحماسة بين الناس ،كما كان يطلق على المحاربين اسم المجاهدين ، وإذا مات أحدهم فى أثناء المعركة سمى شهيداً . وكانت الخطب والمواعظ الدينية التى تلقى من فوق منابر المساجد والجوامع فى أيام الجمع وسيلة هامة من وسائل الحث على الجهاد ضد أعداء العروبة . ومن أمثلة ذلك الكتاب الذى قرئ فى الجامع الأزهر يوم الجمعة ٣ ديسمبر ١٢٤٩م — ٦٤٧ هـ بعد مغادرة الفرنج دمياط ونزولهم بفارسكور فى طريقهم إلى العاصمة .

وغير ذلك ، فقد امتازت هذه الحملة بالتهور وقصر النظر والإهمال الشديد من جانب الفرنج . ويتمثل التهور فى اندفاع كونت أرتوا داخل المنصورة بعد عبوره قناة أشموم ، مما ترتب عليه القضاء على مقدمة الجيش الصليبي . أما قصر النظر وعدم التقدير الصحيح لنهاية الأمور وعواقبها ، فيبدو جلياً فى القرار الذى اتخذه مجلس الحرب الصليبي الذى عقد بدمياط ، بالتوجه جنوباً صوب العاصمة بدلا من التوجه إلى الإسكندرية

ذلك القرار الذى كان حلقة جديدة فى سلسلة الأخطاء التى انتهت باندحار الصليبيين وأما إهمال الفرنج وتهاونهم فيتضح فى نسيانهم تحطيم الجسر الموجود على بحر أشموم عند تراجعهم من المنصورة إلى قاعدتهم فى دمياط فى الخامس من أبريل سنة ١٢٥٠م — ٦٤٨هـ، مما ترتب عليه أسوأ النتائج بالنسبة للجيش الهارب .

وإلى جانب هذا كله ، فقد كان الشقاق والغيرة وتفرق الكلمة وعدم التعاون متوفراً فى الجانب الصليبي .. يتضح ذلك فى النزاع الذى قام بين كونت أرتوا وكونت سالسبورى . وفى العداء التقليدى بين الداوية والاسبتارية ، وفى الاختلاف بين رجال مقدمة الجيش المغير الذين عبروا بحر أشموم عن طريق المخاضة .. كل هذا سبب انقسامهم ، وكان له أكبر الأثر فى تخاذلهم وانكسارهم ؛ فى الوقت الذى كان فيه الجانب المصرى متحد الكلمة ، متفق الرأى كالبنيان المرصوص يشد بعضه أزر بعض .

وأخيراً فقد كان من حسن حظ مصر أن هيأ لها القدر فى تلك الفترة ملكاً وملكة قاما بدور مجيد فى صد العدوان الصليبي عنها ، هما الصالح أيوب وزوجه شجرة الدر . فنحن لا ننسى موقف الملك الصالح عند ما علم بعزم الفرنج على قصد مصر ، وإعداده العدة فى دمياط لملاقاتهم ، ثم لا ننسى عزيمته القوية ـ رغم العلل والأوصاب التى به ـ عندما نزل بالمنصورة واستعد بها لملاقاة الأعداء ، فأبى إلا أن يساهم بنفسه فى قتالهم . وكان ينقل من مكان إلى آخر محمولا على محفة بعد أن أقعده المرض وأعجزه عن المشى . ولقد تمكنت شجرة الدر بعد موت زوجها

من إنقاذ مصر من الفرنج وإدارة أمور البلاد فى فترة غيبة « المعظم » فى حصن كيفا إلى أن قدم وتولى شئون السلطنة ، فأثبتت بذلك أنها امرأة حازمة مدبرة خليقة بالملك .

كل هذه الأسباب مجتمعة أدت إلى هزيمة الملك الفرنسى لويس التاسع ورجاله وحملته على ضفاف النيل فى منتصف القرن السابع الهجرى — الثالث عشر الميلادى .

* * *

كان فشل حملة لويس التاسع على مصر إيذاناً بتقلص ظل الاستعمار الصليبي فى الشرق العربى فى العصور الوسطى . بل كان بمثابة ضربة قاضية أصابت آمال المستعمرين فى الصميم ، مما جعل اليأس يتمكن من نفوسهم. وقد قاموا بعد ذلك بمحاولات أخرى هزيلة ضد بلاد الشرق العربى والشمال الإفريقى ، يستهدفون من ورائها التوسع والسيطرة والاستعمار تحت ستار الدين ، ولكن محالاتهم هـــذه لم تكن بأحسن من حملة الفرنسيس ، إذ لاقت نفس المصير المشئوم.

وكان لدولة المماليك البحرية الفضل فى توجيه اللطمة الأخيرة إلى حكم الفرنج المنهار بالساحل الشامى . فنرى الظاهر بيبرس يغير على ممتلكاتهم ويستولى على أنطاكية عام ١٢٦٨م — ٦٦٧هـ . وواصل الملك المنصور سيف الدين قلاون سياسة بيبرس من حيث شنه الهجات المتكررة على باقى ممتلكاتهم ، والتى يتوجها استيلاؤه على طرابلس فى سنة ١٢٨٩م — ٦٨٨هـ . وأخيراً فى ١٨ مايو ١٢٩١ م — ٦٩٠ هـ استولى السلطان الأشرف خليل على عكا ، آخر معاقلهم الحصينة بالأراضى

المقدسة . ولم يبق لهم بعدئذ سوى أمكنة فردية ضعيفة طردهم المصريون منها في نفس السنة .

وبذلك تم القضاء نهائياً على البقية الباقية من الاستعمار الفرنجي في الشرق العربي ، بعد حروب دامية دامت زهاء قرنين من الزمان بين قوى الحق والإيمان ، وقوى الباطل والعدوان ، انتهت بانتصار العروبة في مصر والشام وشمالي إفريقية على أولئك الصليبيين الدخلاء ، حتى إنه لم تقم لهم بعد ذلك قائمة . وهكذا عادت الجرذان إلى جحورها تندب خيبة أملها ، وأسدل الستار على حروب التعصب والاستعمار في العصر الوسيط ليرتفع العصر الحديث عن مشاهد جديدة من الاستعمار سيكون النصر فيها اليوم كما كان بالأمس حليف العروبة بإذن الله .

المراجع الرئيسية للحملة

أولا - المراجع العربية

أ - المخطوطات :

١ - ابن أيبك (ت ٧٣٢ هـ / ١٣٣١ م) أبو بكر بن عبد الله :
كنز الدرر وجامع الغرر - ٩ ج - دار الكتب المصرية -
رقم ٤٦٤٣ تاريخ .

٢ - ابن الجوزى (ت ٦٥٤ هـ / ١٢٥٧ م) أبو المظفر
شمس الدين يوسف :
مرآة الزمان فى تاريخ الاعيان - جـ٨ - دار الكتب المصرية
- رقم ٢١٨١ تاريخ .

٣ - ابن دقماق (ت ٨٠٩ هـ / ١٤٠٧ م) صارم الدين ابراهيم:
نزهة الأنام فى تاريخ الاسلام - دار الكتب المصرية - رقم
١٧٤٠ تاريخ .

٤ - ابن منكلى (ت ٧٧٨ هـ / ١٣٧٦ م) محمد بن منكلى :
كتاب الاحكام المملوكية والضوابط الناموسية فى فن القتال
فى البحر - مكتبة كلية الآداب بجامعة اسكندرية - رقم٩م.

٥ - ابن واصل (ت ٦٩٧ هـ/١٢٩٨ م) جمال الدين أبو عبدالله:
مفرج الكروب فى أخبار بنى أيوب - ٢ جـ - مكتبة جامعة
اسكندرية - رقم ٦٤ مخطوط .

٦ - أبو شامه (ت ٦٦٥هـ/١٢٦٧م) عبد الرحمن بن اسماعيل:

الذيل على الروضتين فى أخبـار الدولتين ـ ٢ ج ـ دار الكتب المصرية ـ رقم ٩٩٣ تاريخ ٠

٧ ـ أبو المحاسن (ت ٨٧٤ هـ / ١٤٦٩ م) جمال الدين يوسف ابن تغرى بردى :
المنهل الصافى والمستوفى بعد الوافى ـ ٣ ج ـ دار الكتب المصرية ـ رقم ٣٥٥ تاريخ ٠

٨ ـ الصفدى (ت ٧٦٤ هـ / ١٣٦٣ م) صلاح الدين أبوالصفا خليل :
الوافى بالوفيات ـ ٧ ج فى ١٧ مجلدا ـ دار الكتب المصرية ـ رقم ١٢١٩ تاريخ ٠

٩ ـ العمرى (ت ٧٤٨ هـ / ١٣٤٨ م) ابن فضل الله :
مسالك الابصار فيممالك الامصار ـ ج ٢٧ فى ٤ مجلدات ـ دار الكتب المصرية ـ رقم ٥٦٠ معارف عامة ٠

١٠ ـ العينى (ت ٨٥٥ هـ / ١٤٥١ م) بدر الدين :
عقد الجمان فى تاريخ أهل الزمان ـ ٢٣ ج فى ٦٩ مجلدا ـ دار الكتب المصرية ـ رقم ١٥٨٤ تاريخ ٠

١١ ـ الفيومى (ت ٧٧٠ هـ / ١٣٦٨ م) أحمد بن محمد بن على:
نثر الجمان فى تاريخ الاعيان ـ المجلد الثانى ـ دار الكتب المصرية ـ رقم ١٧٤٦ تاريخ ٠

١٢ ـ الكتبى (ت ٧٦٤ هـ / ١٣٦٣ م) محمد بن شاكر :
عيون التـواريخ ـ ج ٢٠ ـ دار الـكتب المصرية ـ رقم ١٩٤٧ تاريخ ٠

١٣ ـ النويرى الكندى (ت ٧٣٢ هـ / ١٣٣٢ م) شهاب الدين أحمد :
نهاية الأرب فى فنون الأدب ـ ٥٥ مجلدا ـ دار الكتب المصرية ـ رقم ٥٤٩ معارف عامة .

ب ـ المراجع المطبوعة :

١ ـ ابن خلدون (ت ٨٠٨ هـ / ١٤٠٦ م) عبدالرحمن محمد :
العبر وديوان المبتدأ والخبر ـ ٧ جـ ـ القاهرة ١٢٨٤ م .

٢ ـ ابن خلكان (ت ٦٨١هـ/١٢٨٢م) شمس الدين أبوالعباس:
وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان ـ ٢ جـ ـ القاهرة ١٢٩٩ هـ .

٣ ـ ابن كثير (ت ٧٧٤ هـ / ١٣٧٣ م) عماد الدين أبوالفدا :
البداية والنهاية فى التاريخ ـ ١٤ جـ ـ مصر ١٣٥١ ـ ١٣٥٨ هـ .

٤ ـ ابن الوردى (ت ٧٤٩هـ / ١٣٤٩م) أبو حفص زين الدين عمر :
تتمة المختصر فى أخبار البشر ـ ٢جـ ـ القاهرة ١٢٨٥ هـ.

٥ ـ أبو الفداء (ت ٧٣٢ هـ / ١٣٣١ م) عماد الدين أبوالفداء اسماعيل :
المختصر فى أخبار البشر ـ ٤ جـ ـ استانة ١٢٨٦ هـ .

٦ ـ أبو الفرج الملطى (ت ٦٨٥ هـ / ١٢٥٨ م) غريغوريوس أبو الفرج المعروف بابن العبرى :
تاريخ مختصر الدول ـ بيروت ١٨٩٠ م .

٧ ـ أبو المحاسن (ت ٨٧٤ هـ / ١٤٦٩ م) جمال الدين يوسف ابن تغرى بردى :

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة ـ ٩ج ـ القاهرة ١٣٤٨ ـ ١٣٦١ هـ .

٨ ـ جوزيف نسيم يوسف (دكتور) :

لويس التاسع فى الشرق الأوسط ـ قضية فلسطين فى عصر الحروب الصليبية ـ القاهرة (الطبعة الثانية) ١٩٥٩ .

٩ ـ الذهبى (ت ٧٤٨ هـ/١٣٤٨ م) أبو عبد الله محمد بن أحمد:
دول الاسلام ـ ٢ ج ـ الهند ١٣٣٧ هـ .

١٠ ـ السيوطى (ت ٩١١ هـ / ١٥٠٥ م) عبدالرحمن بن أبى بكر:
حسن المحاضرة فى أخبار مصر والقاهرة ـ ٢ ج ـ القاهرة ١٣٢٧ هـ .

١١ ـ عبد الفتاح عبادة (ت ١٩٢٨ م) :
سفن الاسطول الاسلامى وأنواعها ومعداتها فى الاسلام ـ ـ القاهرة ١٩١٣ .

١٢ ـ المقريزى (ت ٨٤٥ هـ / ١٤٤٢ م) تقى الدين أبو العباس أحمد :

أ ـ المواعظ والاعتبار فى ذكر الخطط والآثار ـ ٢ ج ـ القاهرة ١٢٧٠ هـ .

ب ـ السلوك لمعرفة دول الملوك ـ ج ١ ، ٢ ـ القاهرة ١٩٣٤ ـ ١٩٤٢ م .

ثانيا ـ المراجع الأجنبية

أ ـ المراجع الأصلية :

1. Anonymous, Poème Anglo-Normand sur la Bataille de Mansourah. Cf. M.F. Michel, Hist. et chronique du très Chrétien roi St. Louis, Paris, 1881 (pp. 327-358).
2. Artois, Robert d', Lettre du Comte d'Artois sur la prise de Damiette. Cf. Mihaud, Croisades, t. iv. Paris, 1822 (pp. 610-611).
3. Beaumont, Jean de, Lettre à Geoffroi de la Chapelle sur la prise de Dmiette. Cf. A.C.L., t. 1. Paris, 1881 (pp. 389-390).
4. Bouquet, M. (ed.) Recueil des Historiens des Gaules et de la France. 24 vols. Paris, 1738-1904.
5. Eracles, l'Estoire de Eracles Empereur et la Conqueste de la terre d'outremer. Cf. R.H.C.-H.Occ., t. II, 24, partie, Paris, 1859 (pp. 1-481).
6. Joinville, Jean de, Histoire de Saint Louis (ed. Wailly) Paris, 1874.
7. Louis IX, King of France, Lettre de St. Louis sur sa captivité et sa délivrance. Cf. Michaud, Crois. t. IV, Paris, 1822 (pp. 619-631).
8. Melun, Guy de, Lettre à B. de Carn., sur la prise de Damiette Cf. Michaud, Crois, t. IV, Paris, 1822 (pp. 611-19).
9. Pario, M. Matthew Paris' English History from the year 1235 to 1273, 2 vols., London, 1852-53.

10. Rothelin, Continuation de Guillaume de Tyr dite du Manuscrit de Rothelin (1229-1261). Cf. R.H.C.—H. Occ., t. II, Paris, 1859. (pp. 489-639).

11. Sarrasin, J.P. Lettre à Nicolas Arrode sur la première croisade de Saint Louis. Ed. M.F. Michel, Hist. et chronique du très chrétien roi St. Louis, Paris, 1881 (pp. 253-313).

ب ـ المراجع العامة :

1. Arnold, T.V., The Preaching of Islam, London, 1935.
2. Davis, E.J., The Invasion of Egypt in A.D. 1249 (A.H. 647) by Louis IX of France, London, 1897.
3. Grousset, R., Histoire des Croisades, 3 vols. Paris 1948.
4. Oman, C., A History of the Art of War in the Middle Ages. 2 vols., London, 1924.
5. Réshad M., Note sur la prison de Louis IX à Mansourah, Le Caire, 1887.
6. Runciman, S. A History of the Crusades, 3 vols. Cambridge, 1954-1955.

الفهرس

	صفحة
مقـــدمة المؤلف	٣
جيوش العدوان تبحر من فرنسا	٥
مصر تســتعد لملاقاة المعتدين	٨
الفرنســيون فى دمياط	١١
سورية الشــقيقة	٢٣
شجرة الدر فى الميــدان	٢٩
الفرنسيون فى الطريق الى المنصورة	٣٣
الجهـــاد المقدس	٣٥
الفرنسيون أمام بحر أشموم	٣٧
موقعة المنصورة الأولى	٤٨
الشعب فى المعركة	٥٤
موقعة يوم الجمعـة	٦١
الوباء يتفشى فى المعسكر الفرنسى	٦٧
توران شاه يصل الى المنصورة	٦٩
مذبحة فارســكور	٧٣
لويس يقع فى الأسر	٧٨
حديث ذو شجون	٨٥
دمشق تحتفل بالنصر	٨٧
نهــاية طاغيـة	٨٩
مفاوضــات الصلح	٩٤
المصريون يستردون دمياط	٩٦
مآتم وأفراح	٩٨
دراسة تحليلية فى أسباب فشل العدوان	١٠٢
المراجع الرئيسية للحملة	١٢١

طبع بمطبعة العــالم العربى
٢٣ شارع الظاهر بالقاهرة
تليفون ٤٤٧٠٦



مؤسسة المطبوعات الحديثة
شارع ماسبيرو رقم ٣ بالقاهرة
الجمهورية العربية المتحدة

الثمن ١٥ قرشا